خطبة مطران حماه أغناطيوس حريكه

التي ألقاها في مؤتمر بلودان للدفاع عن فلسطين عام ١٩٥٠

قرأ أحدهم ديوان الشاعر الكبير حافظ إبراهيم وهو حي وقابله بعدئذ فقال له:

"يا حافظ رأيت وأنا أطالع ديوانك تبايناً عظيماً بين قصائدك فمنها ما هو في غاية الإبداع والبلاغة ومنها ما فيه ضعف وركاكة حتى يكاد القارئ يظن أن ناظم هذه غير ناظم تلك"

فأجابه حافظ:

وأنا اشعر ذلك في شعري ولكن التبعة في الركاكة والضعف تقع على من كان يكلفني نظمها قبل موعد إلقائها بوقت قصير وأنا أقول أيها السادة إذا أخطأت في كلمتي أو أسأت فتبعة الخطأ والإساءة تقع على من كلفني هذا العمل عند دخولي هذه القاعة وأنا أقدر قيمة هذا الاجتماع العظيم واعتقد أنني لو صرفت شهراً كاملاً في إعداد خطاب لما استطعت أن أفي الموضوع الذي اجتمعنا من أجله حقه ولخانني بياني وتلعثم لساني احتراماً وتهيباً أمام هذه الشخصيات الكبيرة التي تمثل الأقطار العربية أجمع خير تمثيل.

كنت أتجول في القرى ولم أتناول الدعوة إلا منذ يومين فاجتمعت مع صديقيَّ المحترمين النائبين الكريمين نجيب البرازي

والدكتور توفيق الشيشكلي ورجوتهما أن يعتذرا عني لدى لجنة الدفاع عن فلسطين الموقرة لأنني أخشى ألا يكون غيري من الأكليروس في هذا المؤتمر فتكون قلنسوتي القلنسوة الوحيدة بين هذه العمائم والطرابيش والقبعات التي تعلو أشرف الرؤوس لأعظم رجالات العرب فالحا علي بوجوب الاشتراك والسفر معهما وقال أحدهما لو كنت في مكانك لفضلت ألا يكون غيري من الإكليروس في المؤتمر لاحتكر لنفسي تمثيلهم وأنال بين العرب هذا الشرف العظيم فلبيت لا حباً في الاحتكار ونحن نحاربه بل طمعاً في الشرف والكرامة الوطنية اللذين نحارب من أجلهما ودعانا الواجب من أقصى البلاد إلى الدفاع عنهما.

أتيت دمشق واجتمعت مع غبطة سيدي البطريرك فوجدت لديه أعذاراً مبررة تحول دون اشتراكه ولا تمنع اشتراكي فجئتكم ملبياً نداء الوطن.

قال لي بعض أصدقائي وقد علموا بعزمي على المجيء إلى بلودان (ما شأنك في بلودان وأنت اكليريكي لا تشتغل بالسياسة) فقلت لهم أتعتبرون مؤتمر بلودان اجتماعاً سياسياً؟! إذا تنادى أبناء العائلة الواحدة وقد داهمهم العدو ليحتل دارهم واجتمعوا ليتفاوضوا كيف يدفعون هذا العدو وكيف يحافظون على دارهم أيحسب اجتماعهم سياسياً؟

إن الأمة العربية أيها السادة هي عائلة أفرادها هم أبناء الأقطار العربية يجتمعون اليوم ليفكروا في كيف يصدون العدو المتهجم ليحافظوا على أنفسهم ويظلوا في عقر دارهم.

الأمة العربية هي جسم واحد يتألم لألم أي عضو من أعضائه فلا تقول اليد لا يعنيني لأن الضربة جاءت على الرجل ولا يقول الرأس أنا في مأمن لأن الصدمة موجهة إلى الصدر بل تدافع اليد عن الرجل والرأس والصدر بصورة أوتوماتيكية من غير تفكير ولا تبصر وهذا ما ينبغي على الأقطار العربية أن تعمله نحو فلسطين العزيزة التي هي بمثابة القلب من الجسم العربي.

تفضل معالي الوزير علي علوبه باشا وقال إن مصر هي أحرى الدول بالدفاع عن فلسطين فليسمح لي أن أستعير هذا المعنى منه وأن أقول إن رجال الاكليروس أينما كانوا ولأية أُمة انتموا هم أحق الناس بالدفاع عن فلسطين إن كانوا حقيقة يؤمنون أن فيها قبر المسيح.

والدكتور توفيق الشيشكلي ورجوتهما أن يعتذرا عني لدى لجنة الدفاع عن فلسطين الموقرة لأنني أخشى ألا يكون غيري من الأكليروس في هذا المؤتمر فتكون قلنسوتي القلنسوة الوحيدة بين هذه العمائم والطرابيش والقبعات التي تعلو أشرف الرؤوس لأعظم رجالات العرب فالحا علي بوجوب الاشتراك والسفر معهما وقال أحدهما لو كنت في مكانك لفضلت ألا يكون غيري من الإكليروس في المؤتمر لاحتكر لنفسي تمثيلهم وأنال بين العرب هذا الشرف العظيم فلبيت لا حباً في الاحتكار ونحن نحاربه بل طمعاً في الشرف والكرامة الوطنية اللذين نحارب من أجلهما ودعانا الواجب من أقصى البلاد إلى الدفاع عنهما.

أتيت دمشق واجتمعت مع غبطة سيدي البطريرك فوجدت لديه أعذاراً مبررة تحول دون اشتراكه ولا تمنع اشتراكي فجئتكم ملبياً نداء الوطن.

قال لي بعض أصدقائي وقد علموا بعزمي على المجيء إلى بلودان (ما شأنك في بلودان وأنت اكليريكي لا تشتغل بالسياسة) فقلت لهم أتعتبرون مؤتمر بلودان اجتماعاً سياسياً؟! إذا تنادى أبناء العائلة الواحدة وقد داهمهم العدو ليحتل دارهم واجتمعوا ليتفاوضوا كيف يدفعون هذا العدو وكيف يحافظون على دارهم أيحسب اجتماعهم سياسياً؟

إن الأمة العربية أيها السادة هي عائلة أفرادها هم أبناء الأقطار العربية يجتمعون اليوم ليفكروا في كيف يصدون العدو المتهجم ليحافظوا على أنفسهم ويظلوا في عقر دارهم.

الأمة العربية هي جسم واحد يتألم لألم أي عضو من أعضائه فلا تقول اليد لا يعنيني لأن الضربة جاءت على الرجل ولا يقول الرأس أنا في مأمن لأن الصدمة موجهة إلى الصدر بل تدافع اليد عن الرجل والرأس والصدر بصورة أوتوماتيكية من غير تفكير ولا تبصر وهذا ما ينبغي على الأقطار العربية أن تعمله نحو فلسطين العزيزة التي هي بمثابة القلب من الجسم العربي.

تفضل معالي الوزير علي علوبه باشا وقال إن مصر هي أحرى الدول بالدفاع عن فلسطين فليسمح لي أن أستعير هذا المعنى منه وأن أقول إن رجال الاكليروس أينما كانوا ولأية أُمة انتموا هم أحق الناس بالدفاع عن فلسطين إن كانوا حقيقة يؤمنون أن فيها قبر المسيح.




قبلة..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

قــــالَ لــــي وهــــوَ بِطَعــــمِ الــــ
ــــقُبلةِ الحــــسناءِ أخــــبرَ
إنَّ في ثغــــركِ نــــافو
رةَ يــــاقوتٍ وعنــــبرَ
لــــو رنــــا الــــوردُ إلى أنــــ
ــــفاسها الحــــرّى تبخّــــرَ
أو دنــــا الراهِــــبُ منهــــا
نــــسيَ الــــدَيرَ ليــــسكَرَ
كُــــلُّ حَــــرفٍ مِــــن جَنــــى ثغــــ
ــــركِ مقطوعــــةُ سُــــكَّر
فاحــــذَري إن لامــــستها
نــــسمةٌ أن تتكــــسَّر
أنــــتِ يــــا فــــاتنتي أحــــ
ــــلى مِــــن الــــدُنيا وأنــــضَر
وابتــــساماتُكِ تجلــــو الــــ
ــــكونَ كــــالفردوسِ أخــــضَر
أنــــتِ لــــي أُمنيــــةٌ أحــــ
ــــلى مِــــنَ الحُــــبِّ وأكــــبرَ




قراءة لرواية نجيب محفوظ قبل خمسين عاماً

بقلم:
فاضل السباعي

كتب صديقنا الروائي فاضل السباعي هذه الدراسة قبل خمسين سنة يوم قرأ رائعة نجيب محفوظ (بداية ونهاية) وكانت له فيها وجهة نظر عبّر عنها بهذه الدراسة، التي نشرت في مجلة (الأديب) اللبنانية أغسطس /آب/١٩٥٦. وقد وزعّت الهيئة العامة السورية للكتاب بدمشق كتاباً ضمّ كل ما كتبته الأقلام السورية حول الروائي المصري الكبير عنوانه (نجيب محفوظ بعيون سورية) فكانت فيه هذه الدراسة الأولى (تعود إلى العام ١٩٥٦)، وما تلاها كان في العام ١٩٧٣ ثم توالت الأقلام.

مجلة الثقافة

ما أظنّ أنّ أحداً من المعنييّن بالأدب العربي الحديث، لم يسمع عن رواية (بداية ونهاية) للروائي نجيب محفوظ، إن لم يكن قد طالعها وعاش في الدنى الزاخرة التي نفخ الحياة في أرجائها قلم ثرّ معطاء لا يني يغذو الأدب العربي، في وثبته المعاصرة، بالأثر الرفيع تلو الأثر... و(نفيسة كامل علي) إحدى الشخصيات التي تنهض عليها هذه الرواية الممتعة. وقد رسم لها المؤلف دور التي تمنح وتعطي في صمت وفي مزيد من السخاء، لتمضي في آخر المطاف إلى العدم والفناء، بعد أن تجود بذمائها، تماماً كالفراشة التي تطلع من الشرنقة: تضع وتغفو مائتة قريرة العين.

- البداية:

أراد المؤلف لنفيسة أن تعمل وتكدح لتمدّ أسرتها البائسة بقليل من الكسب تجنيه من عملها خيّاطة متجوّلة تدور على البيوت، وذلك بعد أن فتحت الأسرة عينيها صباح يوم فإذا معيلها قد اختطفه الردى على غير سابق إخطار وما خلّف لذويه من المال سوى (معاشه) اليسير الذي لا يكاد يسدّ رمق زوجته وابنته نفيسة وابنيه الطالبين في الثانوية وابنه الآخر العاطل عن العمل العاطل من

الخُلُق.. فكان لا بد أن تدفع الأسرة بالبنت – في كثير من المضض والإشفاق – لتعمل خيّاطة، وقد كانت من قبل تخيط للجيران بين الحين والحين بعض الثياب صداقةً واستحباباً؛ فلعلّ مهنتها هذه تمكّن الأخوين من إكمال تحصيلهما فيُقيّض بعد ذلك للأسرة أمر جديد. على أنّ المؤلّف ما كان يريد لنفيسة أن تقوم بما نيط بها من عملها إلى تعاطي الفحشاء لقاء دريهمات معدودات في كل مرة، إلى أن ينكشف لأخيها أمرُها المستور، فيستاقها إلى النيل لتدفن في أحضانه خزيها وعارها.

كذلك يبدو لنا التخطيط الذي أعدّه المؤلّف لنفيسة كامل علي في (بداية ونهاية) فهل يقوم هذا التخطيط على صرح فنّي متين؟ وشخصية نفيسة، ما نصيبها من (الإقناع)؟ وهل استقام لها، في جميع مراحل تطويرها، البراعة الفنية والصدق الروائي؟

لعلّنا لا نعدو الحقّ، إذا قلنا إنّ شخصية نفيسة لم تكن مقنعة الإقناع كلّه، ولم يستقم لها الصدقُ الروائي كما استقام لسائر شخصيات الرواية؛ ذلك أنّ المؤلف كان قد عزم، قبل أن يشرع في الكتابة، على أن يدفع بنفيسة، البنت الفقيرة والدميمة، إلى أن تزلّ قدمُها وتبيع جسدها للشيطان، لتُقاد من ثمّ إلى الانتحار. وقد مهّد لهذه المأساة بحاجة الأسرة المادية ورغبة البنت الجسدية. وضع المؤلّف ذلك نصب عينيه، ثمّ مضى يكسو شخصياته الدم والروح، وما رضي أن يحيد عنه قيد أنملة، وقد بدا حريصاً أن يختتم المأساة بانتحار نفيسة. وما كان في ذلك من ضير، لولا أنّ انحراف البنت – أصلاً – عن جادة الاستقامة والشرف، ثمّ إصرارها على احتراف العُهر، جاء مقتصراً غير مقنع لا ينسجم مع ما يكتنف حياة البنت من ظروف وملابسات.

فقد كان والدها موظفاً إن لم نقل محترماً فعلى قدر من الاحترام، وقامت على تربيتها أمّ صارمة يهابها كلّ من في البيت: نفيسة، وحسين وحسنين وهما في مطلع الشباب، ولم يشذّ عن تهيّبها إلا الابن الأكبر حسن، فإنه كان مثالاً للتفسّخ والانحلال، لا يكاد يأوي إلى البيت إلا أن قرصه الجوع[1].

- لأنها خيّاطة.. تزلّ قدمُها!

وكان لنفيسة من العمر يوم مات أبوها ثلاثٌ وعشرون سنة. في حين كان حسين في التاسعة عشرة وفي السنة الرابعة من دراسته الثانوية. أما حسنين فقد كان في السنة الثالثة من دراسته ويصغر أخاه في العمر سنتين، وما خلّف المتوفّى لأسرته سوى معاش قدره خمسة جنيهات، لم تجد معه الأسرة بدّاً من أن ينقطع أحد الابنين عن دراسته ليعمل وينهض بأعبائها، أو أن يستمرّا معاً في الدراسة على أن تعمل البنت (خياطة)!

وقد رأينا الأسرة البائسة، غداة وفاة عائلها، تتفكّر في وسيلة تضمن لأفرادها الحياة الكريمة، وكانت الأمّ تُدير الحديث باللين تارة وبالزجر أخرى، إلى أن قالت:

"أما نفيسة فتُحسن الخياطة، وهي تخيط كثيراً لجاراتنا محبةً ومجاملة، ولست أرى بأساً في أن تتقاضى على تعبها مكافأة.. ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفرّ وجهه: خيّاطة!... لن تكون أختي خيّاطة، كلا، ولن أكون أخاً لخيّاطة.. فصاحت به أمه: اخرس.."

وساد صمت مؤلم.. وتألم أيضاً حسين كثيراً لمصير أخته.. أما نفيسة فسكتت مغلوبة على

---

(١) في ذلك يقول أحد الكتّاب: إنّ نجيب محفوظ دفع حسن إلى الانحلال "دون أن يصوّر لنا الأسباب الواقعية والنفسية التي دفعت به إلى هذا الاتجاه، مكتفياً بأن قال إنّ سبب ذلك كان والدَه الذي ألان له المعاملة". مجلة (الأدب) المصرية: العدد الثالث، مايو ١٩٥٦، ص ٥٣.

أمرها، وقد كانت أمها أقنعتها بضرورته[٢].. في هذه الفقرات يتجلّى لنا أمران اثنان: صرامة الأم، وتألّم الأخوين للمصير التعيس الذي تُساق ليه أختهما[٣].

وكذلك تضطرّ الأسرة إلى دفع نفيسة إلى العمل، لتُضيف إلى المعاش دخلاً جديداً، فضلاً عن ثمة بعض قطع من الأثاث راحت الأم تبيعها بين الحين والآخر.

إلى هنا والحوادث تجري مقنعةً. وقد كنّا نحسب أنّ نفيسة ستعمل - في مهنتها الجديدة - على أن تقي كرامتها وكرامة أخوين لها شابيّن غيورين من كل ما يشين، وهي العاقلة الرزينة، والتي تقوم على تربيتها أمّ لا تعُوزها الشدة وأخذ الأمور بالعنف والدهاء. على أننا ما لبثنا أن فوجئنا بالبنت وهي تنحرف بعد أيام من عملها خيّاطةً. تذهب إلى بيتٍ لتخيط ثياب عروس فيه، وهناك (جلس الخطيبانِ على الكنبة المقابلة. كانا ملتصقين. وكانا يتحادثان في صوت مسموع حيناً وينخفض حيناً فيصير مناجاة وهمساً. وكم ودّت أن ترفع رأسها عن الماكينة إليهما، ولكنها خافت وعَقَلَها الحياء أن تلتقي عيناهما بعينها).

وكانت قد اعتادت، بعد صرف الخادم من بيتهم، التردد على بقالية مجاورة لابتياع ما يلزمهم، فتتعرّف إلى (سلمان) ابن صاحب البقالية وصبيّه في آن، معرفة أخذت تزداد بكرور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاوي الأسمر وعينيه الضيّقتين، وتساءلت: "ترى هل حقّا يُبدي نحوها اهتماماً، أم أنها واهمة؟ خيّل إليها أنه يبتسم لها في تودد.." وتنطلق إليه في دكانه فور انصرافها من بيت العروس، ضاربةً بتربيتها وبسمعة أسرتها عرض الحائط.. وفي سبيل من؟ صبيّ خيّاطة!! هنا يبدأ التنافر والنشاز والقسر في السير حسب المخطّط الموضوع. ويستقبلها الشاب (متهلل الوجه وقد لمعت عيناه الضيّقتان. كانت قسماته تشي بالغباء والحيوانية والجبن..) ويرحّب بها، فترتبك، وهي تدفع إليه بالقرش ثمناً للحلاوة الطحينية، فيتناوله ويقول: "سأحتفظ بقرشك بركة" فتبتسم له تشجّعه وترحّب به، وقد اهتزّ قلبها سروراً وجاش صدرها بالانفعال (الرواية: الصفحة ٥٧).

ثمّ إنّ نفيسة تذهب إلى الفتى يوما في دكان أبيه، أن تسبقه إلى الشارع القريب ليُفضي إليها بأشياء هامة. ثمّ يفترقان على موعد. وفي الموعد يتجوّلان قليلاً، ثم يُزيّن لها مرافقته إلى بيته فذلك آمن من العيون، فتستجيب بعد تمنّع. وهناك... تسفح الخيّاطة عفافها في ساعة ضعف، يمنيّها فيها الفتى بالزواج... وينتهي كلّ شيء (ص ٨٠).

- تماد في الزّلل:

وقد كنّا نفهم أن يقف انحراف نفيسة عند هذا المدى، لا سيما وقد تزوج فتاها بعد قليل من فتاة أخرى. ولكنها ترحّب بمن اسمه (محمد الفلّ) عامل الكراج، الذي يتعرّض لها في مرورها من أمام محلّ عمله (ص ١١١).

وينشب في نفسها صراع عنيف تنتهي منه إلى رأي؛ لأنّ ثمة (رغبة تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتوارى)، ولأنها (ترضى الهوان في سبيل النقود التي تمسّ حاجة أسرتها). ويبرز لها الرجل يوماً من الجراح، فتتدانى منه بخطوات وئيدة متجاهلة إياه، فتُحسّ به يتعرض سبيلها قائلاً:

الصخر نفسه يلين يا ستّ، هاك السيارة عند منعطف الطريق. ثم يسير إلى جانبها متشجعاً

---

(٢) (بداية ونهاية): (الكتاب الذهبي)، مارس ١٩٥٦، ص ٢١.

(٣) وأمر ثالث: أنّ في احتراف البنت الخِياطة - في القطر المصري - تدور فيها على البيوت، امتهاناً لكرامتها وكرامة الأسرة! وذلك ما لم يَجْرِ به عُرفٌ في قطرنا السوري.

بابتسامتها... فيطيب لها غزله.. وفي السيارة، في الصحراء، يمدّ ذراعه حول خصرها ويجذبها نحوه بعنف، فتندلق عليه متأوّهة، فيفغر فاه العريض ويُطبق على فمها ويضمّها إلى صدره بوحشية، فتشعر بادئ الأمر بألم وقلق، ثم تمضي آلامها وتغيب في ظلمة باطنية غريبة.. وتبذل قصارى جهدها لإرضائه.. وفي العودة يقذف لها بنصف ريال[4]، فتعتريها خيبة أمل لتفاهة الأجر. (ص ١٢٨)!

إنّ هذا كثير على بنت لم نعرف عنها إلا نقاء النفس وطيب العنصر. ولعلنا نضرب صفحاً عن حبّها صعلوكاً – كسلمان صبيّ البقّال – ما دامت تأمل أن يتّخذ منها زوجة وهي الدميمة التي مضى عنها زورق الزواج... أما أن تتقبّل من عامل الجراح مثل هذا الغزل العاهر، وأن تبذل داخل السيارة (قصارى جهدها لإرضائه)، فذلك ما لا يمكن أن يصدر إلا عن أنثى تحمل نفسية مومس عريقة. وليس يبرر هذه الطفرة تصوير الخواطر وتحليل المشاعر التي كانت تصطخب في أعماق البنت مهما أوتي المؤلّف من مهارة في تناول الخلجات النفسية، فالمسألة هنا أعمق من أن تستساغ لمجرد بلاغة في التعبير أو إجادة في التحليل، فأثر هذين يغيب في الذاكرة فور إغلاق الكتاب، وتبقى الوقائع مجردة من التزويق عارية عن الزخرف البرّاق. لقد كان ينبغي لتسويغ عهر نفيسة أن يكون ذا جذور بعيدة – ولو باهتة – في ماضي ايامها، كأن يكون لها في مراهقتها الطائشة علاقة حبّ مع قريب أو صديق للأسرة أو فتى من أبناء الجيران، فلما مات أبوها وقُدّر لها أن تعمل خيّاطة تتنقّل في بيوت الناس، لم يكن من المستبعد أن تزلّ قدمها، وحتى مع هذه الصورة اللا افتراضية ليس يسهل الرضاء عن تحميلها نفسية المومس العريقة!

(٤) ما يعادل ربع الدولار الأمريكي!

- ما حقيقة البواعث..:

على أنّ المؤلّف، من جانب آخر، وضعنا في حيرة ثانية. فنحن لا نعرف على التحديد الباعث الذي يدفع نفيسة إلى تعاطي البغاء.

* أهو سعيها إلى كسب النقود للإنفاق على أسرتها البائسة؟ ولكن ذلك ليس بالدافع المقنع، لأنّ هناك (موارد) أخرى للأسرة، هي المعاش، والأثاث الذي تباع منه كلّ حين قطعة، ودخل نفيسة الخياطة... إذن فـ (دخلها) كمومس ليس بالدخل الوحيد الذي لا معدى عنه ولا غناء، لا سيما وأنّ عطايا العُهّار من التفاهة بحيث لا تُغري بأن تهْدُر من أجلها عرضها وتُرخص كرامتها، فهي لدمامتها غير مرغوب فيها من الرجال.

* وإن كان الباعث ظمأ جسدياً تقصد نفيسة إلى إطفاء غليله، فقد كان أولى بها أن توقف جسدها على واحد من الفتيان تكون له بالخليلة أشبه، لا أن تتقلبّ في أحضان كل من يرغب فيها من الرجال، ومنهم ذلك المترهّل الأشيب ابن الستين (ص ١٩١)!.

ثمّ إنّ القصة تسير بنا الهوينا... فتتحسّن حال الأسرة تحسّناً مقنعاً. فالأخ الأكبر حسن ينقطع عن البيت فيكفيهم بذلك مؤونة اللقيمات التي يتبلّغها، بل هو لا يني يمدّ إليهم يد المعونة بين الحين والآخر. ويحصل حسين على الثانوية، ويدخل في عداد الموظفين. أما حسنين فإنه يغدو ضابطاً في الجيش معتزاً بنفسه الاعتزاز كله، طامحاً إلى أن يرفع من شأن الأسرة ويُغيّر حالها إلى حال أخرى، وكان أول ما صنع في هذا المضمار سعيه إلى أن يُزيل الوصمة التي لحقت بالأسرة من امتهان البنت الخياطة، فتكفّ نفيسه عن ممارستها، ثم هو يُغيّر الزقاق الشعبي العتيق إلى حيّ حديث، بل إنه يهجر خطيبته (بهيّة) – البنت التي أصبح يراها ساذجة! – وكان قد مضى عليه في خطبتها زمن، لأنها تذكّره بماضيه التعيس، ولأنها لم تعد تواكب آماله الصاعدة... ولا أدلّ على اعتزاز حسنين هذا

وطموحه، من تأثره الشديد يوم فاجأ رجالُ الشرطة الأسرة في بيتها، ففتشوا الدار بدعوى أنّ حسن يتاجر بالمخدرات، حتى إنه جعل يصيح بأمه بعد مضيّ رجال الشرطة:

دعيني أقتل نفسي.. لقد افتُضحنا وانتهينا؛ في حين اعترى نفيسة (خوف غريب ارتعدت منه فرائصُها.. وبكت بكاء هستيريا.. فقد خيّل إليها أنها هي المطاردة.. وتوقّع قلبها شراً فظيعاً.. ثمّ خفق قلبها كأنها تجفل من لقاء أخويها) (ص ٢٣٨).

- النهاية..

إذن، فقد تغيّرت حال الأسرة التغيّر المراد، وتركت نفيسة مهنتها، فداخلها الظنّ، وقد عاشت تجربة الخوف من افتضاح أمرها لدى إخوتها، بأنّ ذلك سيكون سبباً كافياً لأن تمتنع عن سلوك طريق العهر والبغاء.. ولكنّ المؤلف كان قد عزم على أن يُنهي الرواية نهاية (مأساوية)، أن يتصل بعلم حسنين، الغيور المتعالي، خبرُ احتراف أخته البغاء... فيستدعيه ضابط النقطة ليُنهي إليه أنّ من تُدعى نفيسة كامل علي قد ضُبطت مع شاب في بيت سيدة رومية تؤجرّ حجراته بالساعة للعشاق (ص ٢٨٣).

ويصعق حسنين للنبأ، ويندّ عنه رشدُه، فيستاق أخته إلى النيل، حسب الخطة الموضوعة، لتلقي بنفسها بين أمواجه (ص ٢٩٢)، مسدلةً بذلك الستر الصفيق على ما اقترفت من آثام جلبت لأسرتها الخزي والعار.

وكذلك انتهت إلى غايتها مأساة نفيسة كامل علي.

انتهت المأساة، ولكن في شيء من الافتعال والبعد عن الإقناع. فليس في مجتمعنا الشرقي ملامح لهذه الشخصية: البنت التي تتردّى في الهاوية دون أن يكون لتردّيها جذور في حياتنا البعيدة أو القريبة، وفي الوقت الذي تقوم على رعايتها أمّ صارمة وأخوة أشدّاء، وتمضي في طريقها غير آبهة على رغم ما ينتظرها من العقاب البليغ إن هو انكشف أمرها لأخوتها ولا بد من أن ينكشف يوماً.

- بين (نفيسة) و(بهيّة):

ولئن قال أحد المستشرقين الأوربيين – في حق – عن (بهيّة) خطيبة حسنين إنها: (صورة نقيّة للحياء الإسلامي تتّسم بالحياة والصدق)[٥]. فإننا نقول: إنّ شخصية نفيسة كامل علي لا تمتّ بصلة إلى واقع شرقنا الإسلامي، بظروفها التي كساها إياها المؤلف في (بداية ونهاية).

ومن عجب ألا تسترعي هذه الشخصية انتباه ناقد قد توفّر على دراسة الأدب الروائي المصري ووقف عند نجيب محفوظ وقفةً طويلة[٦].

ونحبّ أن ننوّه، أخيراً، بأنّ رأينا هذا يقف عند شخصية نفيسة كامل علي لا يتعدّاها، وليس مثله رأينا في سائر شخصيات (بداية ونهاية)، فالقصة ممتعة حقّا، بدُناها الزاخرة وتماسكها الفني. وبحسب مؤلّفنا أنه ذو قلم يُعدّ من أنجح – إن لم يكن أنجح – الأقلام الروائية اليوم، التي أخذت على نفسها أن تؤرّخ برائع فنّها للواقع العربي، بما يتّسم به من مزايا وما ينخر في كيانه من أدواء.

---

(٥) (القاصّ نجيب محفوظ في نظر المستشرق عبد الكريم جرمانوس)، مجلة (الأديب) اللبنانية: فبراير ١٩٥٣، ص ٤٦.

(٦) عبد العظيم أنيس، في كتابه (في الثقافة المصرية)، بالاشتراك مع محمود أمين العالم (دار الفكر الجديد، بيروت ١٩٥٥): ص ١٥٤ – ١٧٧.



رسالة إلى صديق..

شعر الدكتور: شادي صوان

كفكفْ لآلئكَ الجميلةَ يا صديقي..
فوقَ صدرٍ من صَدفْ
واشربْ معي كأسَ الخلاصِ، ورُدّني
للبحرِ أغرفُ من أنوثةِ مائهِ
ملحَ الشغفْ
كفكفْ لآلئكَ الجميلةَ يا صديقي
فالموتُ يرقبنا ونحنُ
نذيعُ أخبارَ التشاؤمِ والرّدى..
والموتُ قناصُ الفرصْ
كفكفكْ جراحكَ في وريدي
واخلعْ ثيابكَ وارتديني
آهٍ كم البردُ المخبئُ في عظامكَ ينتهي!
من دونِ أن تدري
يصيرُ الثلجُ نارْ
وتصيرُ أوراقُ الخريفِ
شقائقاً أو جُلّنارْ







آهِ صديقي
عارٍ جبينكَ من جنونِ الإنتماءْ..
فافرحْ..
لأنَّ الله أشعلَ في دمائكَ بوحهُ..
ورعى يديك
حقلانِ من شعر..
يناهضُ أمةً
تنمو يديكْ
فارعى خرافكَ فوقَ أعشابِ السماءْ..

* * *

عارٍ جبينكَ يا أخي
في ضوءِ عينيكَ الذبيحِ حمامةٌ..
تعبتْ من التجوالِ في قفصِ المكانْ
افتحْ لها بوابةً أو نافذةً
قدِّمْ لها طبقَ الأمانْ
واتركْ لقلبها أن يسافرَ في فضاءِ الكبرياءْ
لا تشتهي أقوالَ غيركَ
من جهابذةِ الزمانِ..
فكلّهم لا يعلمونْ
معنى الجنونْ
افردْ جناحكَ وانطلقْ
ردّدْ معي
أني أكونْ
أو لا أكونْ....






رنَّ جرس الهاتف. أمسك "حمو" السماعة:

- ألو.. مَنْ.. أبو سيامند!!.. أهلاً.. كيف الصحة..؟.

- أستاذ حمو: هل بإمكانك الحضور لأمرٍ ضروري..؟.

- حالاً.. خلال خمسٍ من الدقائق، سأكون في المدرسة.

أخبره صاحب المدرسة الخاصة، أنه يبحث عن شخص يدير شؤونها بكل أمانة ومسؤولية، وأن الاختيار قد وقع عليه، كونه يتقن فنَّ "الأتيكيت " في تعامله مع زميلاته من المعلمات، ومع ذوي التلاميذ، ولمحبةٍ يكنُّها الأطفال له، وخبرةٍ في تقديم المعلومةً بما يتناسبُ وقدرةَ التلاميذِ على الاستيعاب.

- إيه أستاذ "حمو"، ماذا تقول، ها... لقد نسيتُ، هل تودُّ احتساءَ كوبٍ من القهوة..؟

- موافق "أبو سيامند"، ولكن بشرط أن تكون الصلاحيات كلها بيدي، وأنا عند وعدي بوضع آلية جديدة للتعليم، وتحسين صورة المدرسة بانتقاء أكثر المعلمين خبرة وقدرة على الخلق والإبداع.

- إذاً اتفقنا أستاذ.

- اتفقنا "أبو سيامند".

لم يكن يتصور يوماً أنه سيكون آمراً على رهط من المعلمات والأذنة. لخمس عشرة سنة على التوالي كان مأموراً، يصغي وزملاءه إلى تعليمات المدراء. ما أجمل أن يستمع الآخرون إليه... أن يهزوا - بقناعة أو سواها - رؤوسهم... أن يضغط زراً، فتهرع الآذنة تحمل

فنجانَ قهوة وماءً مثلجاً... أن يصرخَ في وجه المستخدم مؤنباً تغاضيه عن إصلاح مقعد مكسور.

زاد "حمو في مراقبته للأطفال أثناء الفرص، وإعطاء إرشاداته للمعلمات.. تذكيرهنّ بإجراء الاختبارات الشهرية في المواعيد المحددة، تدريبهنّ على وضع الدرجات في دفتر الفروق الفردية، دون شطب أو حاجة لاستعمال المزيل. من اليوم وإلى نهايةً شهر أيار سيكون لديه متسع من الوقت لإثبات جدارته بالمنصب الذي عُرِضَ عليه.

استدعاه "أبو سيامند" في اليوم التالي، أعطاه مظروفاً يحوي الأوراق الثبوتية للمعلمات، طلب تسليمها لمديرية التربية. أحس "حمو" بغبطة تنتاب روحه الهائمة ونفسه المتناثرة أشلاؤها. ما أروع أن يوليَهُ الآخرون قدراً من الاهتمام.. إذاً.. فقد بدأ الامتحان.. وها هو المالك يكلفه بأول مهمة إدارية. تمنى أن تتغير قوانين الزمن، أن يحل العام المقبل بسرعة فيصبح في - المدرسة - آمراً ناهياً.. تخصص له غرفة كغرفة المالك.. أثاث فاخرٌ.. كمبيوتر.. تلفازٌ مُوَصّلٌ بكاميرات تراقبُ الباحة والبهو ومدخل المدرسة... خزانتان خشبيتان.. مقاعد وثيرة.

أفاق من تأملاته وقد تخطّت قدماه الباب الرئيسي لمديرية التربية. مضى الزمن بسرعة، لم يشعر بمسافة الطريق من المنطقة إلى مركز المحافظة، وجد نفسه أمام باب كتب عليه بخط رقعي "التعليم الخاص"... بمحاذاتها غرفة صغيرة مشرّع بابها، تضم أثاثاً فاخراً، وامرأتين تفترشان مقعداً مزركشاً مغطى بوجه من القماش الملمع، أما النوافذ فكانت واسعة، ستائرها مصنوعة من المخمل وممتدة من السقف إلى الأرض، وكانت الثريا تنثر أضواءها من خلال عدد من المصابيح الكهربائية. إحدى المرأتين كانت في أول الشباب، ترتدي بلوزة زهرية اللون وسروالاً ضيقاً أسود. مُحْكمة شدَّ النهدين والخصر والردفين، انسدل شعرها بهدوء على كتفيها، أما الوجه فكان دائرياً، تَوَرَّدَ فيه الخدان مثل جورية في ضاحي منبتها. الثانية بدت أكبر سناً، أظهرت احتشاماً كبيراً لعينين مسبلتين إلى الأرض وعباءة سوداء أخفت معالم أنوثتها. وخلف طاولة المكتب.. رجل في العقد الخامس، حليق الذقن والشارب، يُقنع ضيفتيه بأنهما قد أصابتا عين المنطق وكبد الحكمة حينما اختارتاه بالذات، مفرِّجاً للكروب، فما من معضلة إلا ويجدُ لها حلاً، كان الرجل - أثناء عرض خدماته - يبالغ في الإطراء.. يثني على الأم حسن التربية تارة، ملتفتاً من ثمَّ إلى الفتاة يخصها بحديث ممزوج بزيف الابتسام، مختلساً النظر إلى نهدين مكوَّرين، بارزيْ الحلمتين، لاحَ - بسفورٍ - قسمهما العلويُّ، لِزُرٍّ تعمَّدَتِ الفتاةُ نزعه من عروته.

كانت غرفة الموظفات مستطيلة الشكل. لكل موظفة طاولة كُدِّستْ بالأوراق، وخزانة امتلأت بمصنفات روعي في ترتيبها، وبمحاذاة الباب من الداخل، فتاة في عمر الزهور، تجلس على كرسي وأمامها حاسوب، يظهر على شاشته كتابٌ توجهه المديرية إلى الوزارة للحصول على موافقة ما. وبينما الموظفة تتأمل الأوراق التي قدمها لها "حمو"، دخل رئيس الديوان. وجده واقفاً أمام الموظفة:

- عفواً أستاذ لِمَ أنت واقف هكذا...؟.

- أنتظرُ موافقة الآنسة على أوراق قدمتها لها.

- ولكنْ، لا يجوز لرجل "جنتلمان" مثلك الوقوف، تفضل إلى غرفتي لتحتسي القهوة بينما تقوم الآنسة بعملها..!.

كان من عادة "كلي" أن تضع لمساتها الأخيرة على مظهره. لم تكن تسمح له بالخروج من البيت إلا بعد أن تَطْمَئنَّ إلى تطابق الألوان فيما يرتديه من ألبسة أو ينتعله من أحذية أو يعتمره من قبَّعات، ورغم ضآلة مدَّخرات العائلة، فإنها قد دأبت على تفريغ الجيوب من القطع المعدنية الصغيرة، كلما أرسلت السراويل إلى الغسالة، إلى أن تكفي تلك النقود - يوماً - لشراء نوع معيَّن من العطور "جيو أرماني". كانت تكرر على الدوام بأنَّ الأناقة في المظهر وزجاجة العطر المنتقاة من أمثالها، ممن يمتلكن قدرات شم تفوق شم الكلاب والقطط؛ كلاهما يجعلُ المرء مُرَحَّباً به في المجالسِ وفي الدوائر الرسمية على وجه الخصوص. لم تُعِرْ أيَّ اهتمامٍ لتحذيرات الأصدقاء بأنها تقدِّم زوجها للأخريات على طبقٍ من ذهب، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيطير من يدها كما تغادر الأطيار الأوكار إلى مناطق أكثر دفئاً، بل، وحينما تتباهى الجارة أمامها، بأن زوجها يهيم بها حبّاً وأنه كالخاتم في إصبعها؛ تزداد "كلي" إصراراً في أن تتكلم عن مناقب "حمو" وخصاله الحميدة، في إظهاره بهيئة تحسدها النساء عليه، ورغم أنه لا من حلقٍ يتدلّى من أذني "كلي" أو من طوق ذهبي يزيِّن الرقبة؛ إنما محاضراتٌ تستلم فيها دفة الحديث مؤكدة أن الهدية.. عظمتها وغلاء ثمنها؛ يكمن في قيمتها المعنوية؛ فإنها وحينما تجد في جليستها حسنَ إصغاءٍ وتلهفٍ لسماعِ المزيد.. تسترسل وبخيلاء: يقبِّرني شوّ رجّال، يرفض أن يوقظني في الصباح الباكر، يدخل المطبخ خلسة ليصنع القهوة، ينطلق من ثمَّ إلى عمله بعد أن يطبع قبلته الدافئة على إحدى وجنتيَّ، يطلع عليِّ قبري.. الغسيل، منعني مشقة القيام به خوفاً على يديَّ من التشققِ. طلباتي كلها ينفذها دون تردد. أمانيَّ ورغباتي يستدل عليها من ملامح وجهي وطرق تفكيري، لن تصدقي إن بحتُ لكِ، بأنه يتولّى بنفسه عملية استحمامي. يحملني على ذراعيه إلى الحمام؛ فيدلِق الماء بيسر على طراوة جسدِي، كالطفلة يدللني.. ها... هل تتصورين..!؟.

تتقن "كلي" فن الوصف والتعبير إلى حدٍّ يجعل الجارة تودُّ لو تقاسمها "حمو" مناصفة، أو لَتظنُّ، بأن كل ما يفعله الزوج من أجل سعادتها؛ لا يساوي أبسط ما تحظى به "كلي" من حب ورعاية.

تمنى "حمو" أن يتركه الرجل لشأنه، أن يغضَّ عنه الطرف. كان يدرك أن عملية استدراجه لاحتساء القهوة، إنْ هي إلا وسيلةٌ للتعرف عليه عن قرب. كان يرهب تلك اللحظة التي يدرك فيها الرجل، بأن "حمو" ليس ذا شأن كما غرَّه مظهره، كم سيبدي - حينها - اشمئزازاً خفياً تظهره القسمات والملامح. أدرك أنه بغنى عن موقف كهذا، وبناء عليه - وبأدب جمٍّ - قدَّم اعتذاره.

التفتت إليه الموظفة: أوراقك غير مقبولة يا أستاذ، فأنت خريج صحافة، والصحافة لا تمت للتعليم بصلة. استدارت المرأة إلى أكبر الموظفات سناً تطلب المشورة منها؛ فعرف أنها رئيسة القسم: بالطبع لا تقبل شهادة كهذه، فالتعليم الخاص يتطلب حملة إجازات في التربية وعلم النفس واللغات أما الصحافة - هزت برأسها - فليس مجالها التعليم.

جوليا طعمة دمشقية

١٨٨٢ - ١٩٥٤/٨/١٤

بقلم:
يوسف عبد الأحد

أديبة لبنانية وصحفية ومربية وخطيبة ورائدة النهضة النسائية في لبنان، كان منزلها منتدى لكبار الأدباء والشعراء، أنشأت مجلة (المرأة الجديدة) عام ١٩٢١.

ولدت جوليا طعمه دمشقيه عام ١٨٨٢ في بلدة (المختارة) قضاء الشوف، والدها المعلم جرجس طعمه من طائفة الروم الكاثوليك ووالدتها فريده ناصيف.

تلقت دراستها الأولى في (المختارة) ثم في المدرسة الأميركية للبنات في صيدا وتابعت دراستها الثانوية في مدرسة الشويفات وتخرجت عام ١٨٩٦ ونالت أعلى شهادة.

بعد تخرجها مارست مهنة التعليم في فلسطين في مدرسة (شفا عمرو) لمدة سنتين ثم عادت إلى لبنان بسبب وفاة والدتها سنة ١٩٠٠، ثم انتقلت العائلة إلى (برمانا) ومارست هناك التعليم في مدرسة (الفرندز).

في عام ١٩١٢ تعرف إليها بدر دمشقية وهو شخصية بيروتية سنيّة مرموقة وكان متزوجاً وله ثلاثة أولاد، أحب جوليا طعمه وطلّق زوجته خيرية وتزوج جوليا عام ١٩١٣ في مصر رغم فارق الدين وكان عمرها

٣١ سنة، وأنجبت منه ابنتها سلوى عام ١٩١٤ التي تزوجت من فؤاد السعيد، وبعد خمس سنوات أنجبت ابنها نديم الذي أصبح سفيراً للبنان في لندن.

كان منزلها صالوناً للأدباء والشعراء (١٩١٥ - ١٩٢١) وكان من رواده آل زيدان أصحاب دار الهلال وفارس نمر ويعقوب وفؤاد صروف أصحاب دِار المقطم وغيرهم من الشخصيات الأدبية الكبيرة.

أسست في عام ١٩١٧ جمعية (جامعة السيدات) التي ضمّت سيدات مثقفات من مختلف الطوائف وكن يجتمعن في منزلها مرة في كل شهر لمناقشة موضوع تحرير المرأة والمطالبة بحقوق المرأة السياسية.

وفي عام ١٩٢١ أصدرت مجلة (المرأة الجريدة) وهي من أوائل المجلات النسائية واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٢٧.

كتبت جوليا في مجلتها ٦٢ افتتاحية وكان شعارها (إن الأمة نسيج الأمهات) ومن أهدافها بث روح التربية الاستقلالية وتحسين الحياة العائلية وترقية المرأة العربية علمياً وأدبياً واجتماعياً.

وأصدرت في عام ١٩٢٥ مجلة متخصصة للأطفال أسمتها (سمير الصغار) ومجلة (النديم) عام ١٩٢٦ وكانت مجلة أدبية اجتماعية انتقادية فكاهية.

وفي عام ١٩٤٧ منحها رئيس الجمهورية اللبنانية بشاة خليل الخوري وسام الأرز المذهب وتسلمت الوسام ابنتها سلوى لأنها كانت طريحة الفراش بسبب آلام في الظهر كان سببها الحادث الذي تعرضت له عام ١٩١٢ عندما رفسها حصان وألقاها أرضاً.

اعتزلت جوليا الحياة العامة منذ عام ١٩٤٣ ولجأت إلى الفراش لأن الصدمة التي تعرضت لها في مطلع شبابها ظلت آثارها باقية إلى أن وافتها المنية يوم السبت في ١٩٥٤/٨/١٤ في مدينة (صوفر) ونقل جثمانها إلى بيتها في بيروت شارع (بلس) واحتفل بالصلاة عليها في الكنيسة الإنجيلية يوم الأحد في ١٩٥٤/٨/١٥ وهذا يدل على أن جوليا بقيت على دينها.





شعر : حسين أحمد عبد الرحمن

قد أمطرت عيناكَ في أركاني
فهربتُ من شكّي إلى إيماني

وتناثر المطرُ الحبيبُ على
قلبي فأزهرَ شاطئي وجناني

قد أمطرت عيناكَ وعداً يانعاً
فذهبتُ متّكئاً على أحزاني

ولبستُ ثوباً من نقاء سريرتي
وخلعته وجعلته قرباني

قدمتُ آمالي بحق أخضرٍ
مما جمعتُ وأفرزتْ خلجاني

وشرحتُ فيه قصتي وصبابتي
كيف اكتهلتُ وصودرت ألواني

أنا مبحر في وحدتي متعبدٌ
أبغي الرضا وسفينتي قرآني

لا أستطيعُ الشرحَ بل حبي غدا
مُتقدّماً وموضّحاً عنواني

لا أستطيعُ فكل شيءٍ عابرٌ
إلاَّ هوى عينيكَ في ميزاني

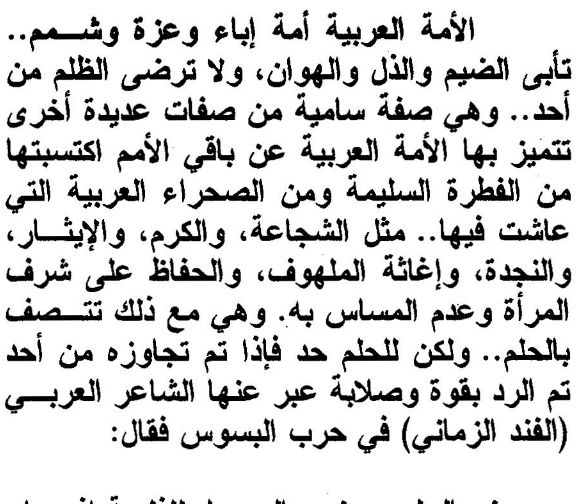
قد أمطرتْ عيناكَ واستمطرتها
وحياً يروّي خاطري وبياني

عليِّ أصيرُ الشمسَ في إشراقها
متحصناً بالبدر في أكفاني

عليِّ أرى نفسي قريباً عارفاً
إني الفقير إليكَ بالإحسانِ







الخالدون..

بقلم:
أحمد سعيد هواش

الأمة العربية أمة إباء وعزة وشمم.. تأبى الضيم والذل والهوان، ولا ترضى الظلم من أحد.. وهي صفة سامية من صفات عديدة أخرى تتميز بها الأمة العربية عن باقي الأمم اكتسبتها من الفطرة السليمة ومن الصحراء العربية التي عاشت فيها.. مثل الشجاعة، والكرم، والإيثار، والنجدة، وإغاثة الملهوف، والحفاظ على شرف المرأة وعدم المساس به. وهي مع ذلك تتصف بالحلم.. ولكن للحلم حد فإذا تم تجاوزه من أحد تم الرد بقوة وصلابة عبر عنها الشاعر العربي (الفند الزماني) في حرب البسوس فقال:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان
وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

لقد كان العربي مستعداً دوماً للنزال مع من يعتدي عليه أو على قبيلته، لذا كانت الحروب الكثيرة التي خاضتها الأمة العربية مع أعدائها من فرس، وروم، وغيرهم.. وظهرت الفروسية العربية التي نمتها حياة الصحراء.

وفي العصر الإسلامي ظل العربي محافظاً على معظم هذه الصفات لأنها من الفطرة السليمة وكما كان في العصر الجاهلي شعراء فرسان مثل طرفة بن العبد وعنترة وغيرهم.. كذلك ظهر في العصور العربية اللاحقة شعراء فرسان جاهدوا بالسنان والبيان مثل الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة الذي استشهد في معركة مؤتة، وهو القائل عند ذهابه إلى غزوة (مؤتة) مرتجلا:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي
يا رشد الله من فاز وقد رشدا

وقد حقق الله له ما أراد، فاستحق رضى الله ومحبة الحفدة الذين أعجبوا بفروسيته وشاعريته وكان بعضهم تلميذاً له.

ولم تنقطع مواكب الشهداء العرب حتى الساعة. ففي كل يوم يتساقط العشرات منهم في

كل بقعة من دنيا الأمة العربية، والنجيع العربي الزكي لا يزال يسيل ويهرق بغزارة. وإن أمة يتسابق أبناؤها للشهادة في سبيل الوطن والأمة والحرية والاستقلال لهي أمة جديرة بالخلود والمجد.. أما الشهيد فله كل الحب والاحترام والمنزلة الرفيعة في السماء.

وكذلك كانت منزلة الشهداء عند أبناء أمتهم العربية سامية رفيعة لا تعادلها أية منزلة لأحد من الناس، وقد عبر الشاعر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) عن منزلة الشهيد ومدى الاحترام والإجلال اللذين يستحقهما فقال:

خير المطالع تسليم على الشهدا
أزكى الصلاة على أرواحهم أبدا
فلتنحن الهام إجلالاً وتكرمة
لكل حر عن الأوطان مات فدا
تلك الجبابرة الأبطال ما ولدت
للمجد أمثالهم أم ولن تلدا

نعم إن الشهيد يستحق منا كل إجلال وإكبار وتكريم، وأن يمجد عمله الاستشهادي ليكون نبراساً مضيئاً للأجيال.. ومن أجدر بأصحاب البيان وخاصة الشعراء بإظهار كرم الشهيد ونبله، فها هو الشاعر عمر يحيى يشيد بفضل شهداء الأمة العربية فيقول في قصيدة بعنوان (ذكرى الشهداء) شهداء ١٦ أيار ١٩١٦م:

شهداء الأوطان ماتوا ليحيوا
في قلوب الأبناء كهلاً وطفلا
ذكرتهم أوطانهم في شجاها
ودعتهم فأخلصوا الحب قبلا
شهد الله أن ذكرى رداهم
من حنايا الضلوع هيهات تبلى
أورثوا المجد حسرة حين بانوا
عن حماهم واستوطنوا الخلد ظلا
وبكتهم منازلٌ وربوع
حرموها مما تؤمل وصلا

ولكن هل لليراع، مهما كان قديراً أن يعطي الشهيد حقه من التكريم والتمجيد؟ وهل للكلمات مهما سمت القدرة على وصف كرم الشهيد ونبله وقداسة مبتغاه؟! كلا.. لا يمكن مهما رزق من ملكة البيان وقوة التعبير وفصاحة اللسان أن يوفي الشهيد حقه وهيهات أن يطلب تمجيداً من يفدي بروحه أمته ووطنه (والجود بالنفس أقصى غاية الجود):

وقد عبر الشاعر عدنان مردم بك عن كرم الشهيد ونبله فقال:

يا فتية مهروا المعالي عن رضى
بدمائهم واسترخصوا المبذولا
هل بعد بذلكم الحياة لمن بغى
سبل المكارم ما يعد جليلا
فتباركت تلك الدماء على الثرى
مسفوحة تسقي ربا وطلولا
وتقدست أجسادكم منثورة
نثر الشقائق رقة ونحولا
إن رمت في الدنيا حياة حرة
فاسلل حساماً للطغاة صقيلا
وابسط يديك ببذل روحك عن رضى
فالمجد يأبى أن تكون بخيلا

إنهم الشهداء الأبرار الذين خلدهم الأدب والشعب وما زالت ذكراهم العطرة على كل شفة ولسان، وصار يوم السادس من أيار عيداً للشهداء العرب.

وفي الرابع والعشرين من شهر تموز لعام ١٩٢٠م يتصدى القائد العربي السوري يوسف العظمة مع كوكبة من أجناده لقوات فرنسا المعتدية، وتدور معركة غير متكافئة، ويسقط القائد (يوسف العظمة) شهيداً في روابي

ميسلون ضارباً المثل الأعلى بالتفاني والشجاعة والإيثار ما جعله محل إكبار وإجلال في جميع ديار الأمة العربية بل وعند أعدائها الفرنسيين أنفسهم.

وقد صور الشاعر خليل مردم بك هذه الموقعة فقال:

هوى وحلته حمراء من دمه
كالشمس حين هوت في ثوبها الجادي
صديان لم يروَ حتى عبَّ من دمه
والهف نفسي له ريَّان أو صادي
في فتية نفروا للموت حين بدا
جريدة من زرافات وآحاد
صلى الإله عليهم من مجندلة
أشلاؤهم بين أغوار وأنجاد

وكان من نتيجة هذه المعركة أن حط الاستعمار الفرنسي رحاله، ولم يجل آخر جندي فرنسي عن القطر العربي السوري حتى السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ بفضل المجاهدين والشهداء الذين سقطوا في محاربة هذا العدو الجائر، وقد صور الشاعر الكبير بدوي الجبل بطولة صانعي الجلاء وشهدائه بأحرف مضيئة وبيان رائع فقال من قصيدة بعنوان (عيد الجلاء):

الزغاريد فقد جن الإباء
من صفات الله هذي الكبرياء
بنت مروان اصطفاها ربها
لا يشاء الله إلا ما تشاء

إلى أن يقول مشيداً بمنزلة الشهداء:

شهداء الحق في جنتهم
هزهُم للشام، وجدٌ ووفاءْ
تضحك (الربوة) في أحلامهم
هل عن (الربوة) في عدن غناءْ
شهداء الحق لا أبكيكم
جلت الغوطة عن ضعف البكاءْ
جلَّ هذا الدم أن يرثى له
عار سفاكيه أولى بالرثاء

إن الشهداء لا يموتون، بل ينتقلون إلى حياة أخرى لا أجمل ولا أطيب منها؛ لذا يستقبل استشهادهم بالفخر والزغاريد. وهاهو الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري يظهر ما يتمتع به الشهيد من إيثار وتضحية في الحياة، فيقدم روحه فداء وطنه حيث ينال بدلاً منها في دار الخلد جنات وأنهاراً في خلود دائم أين منه أطمار الدنيا البالية، فيقول:

جلَّ الشهيد كأن الله جسده
نوراً تغاربه في الجنة النار
في هذه الدار إيثار وتضحية
وفي ذرى الخلد جنات وأنهار
هناك حيث يحوك الخلد سندسه
أما الذي حاكت الدنيا فأطمار

وتبقى قضية فلسطين ومأساتها أهم ما تعرض له الوطن العربي من تبعات الاستعمار البريطاني.. حيث شرِّد شعب عربي آمن من أرضه في عام ١٩٤٨م وحلت شراذم وفلول شعوب من شتى بلاد العالم كلّه وقد انعكس ذلك في شعر الشعراء العرب، خاصة شعراء فلسطين، مثل إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) والشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود الذي يذكرنا بالشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة حيث سقط الشهيد عبد الرحيم محمود في معركة الشجرة يوم ١٩٤٨/٧/١٣ وهو يقاتل العدو الصهيوني محققاً ما تمناه عندما قال في قصيدته الشهيد:

أرى مقلتي دون حقي السليب
ودون بلادي هو المبتغى
يلذ لأذني سماع الصليل
ويبهج نفسي مسيل الدّما
وجسم تجندل فوق الهضاب
تناوشه جارحات الفلا
كسا دمه الأرض بالأرجوان
وأثقل بالعطر ريح الصبا
لعمرك هذا ممات الرجال
ومن رام موتاً شريفاً فذا

وتقوم ثورة الجزائر في تشرين الثاني عام ١٩٥٤م، وتقدم الجزائر البطلة الشهداء بالآلاف من أبنائها، ويتم مؤازرة هذه الثورة من قبل جميع أبناء العالم العربي بالمال والأرواح، حتى تحصل الجزائر على استقلالها في حزيران ١٩٦٢، فينشد الشاعر الجزائري محمد الأخضر السائحي ذاكراً فضل الشهداء:

ذاك لحن الشهيد، أيّ شهيد
قدسته جبالها والشعابْ
ذاك لحن الجريح، أيّ جريح
هدّه البرد والضنى والعذاب
ذاك لحن من الجزائر أنّت
وعلى وقعه السنون الجدابْ

ثم يثأر الاستعمار لنفسه من العرب الذين وقفوا مع القطر الجزائري الشقيق في تأجج ثورته ضد العدو الفرنسي، بالإضافة إلى استيائه من المد الثوري الذي كان يمثله القطر العربي المصري بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والذي بلغ ذروته في تأميم قناة السويس، ما دفع الاستعمار الفرنسي والإنكليزي والكيان الصهيوني إلى التورط بعدوان غادر لئيم على القطر العربي المصري الشقيق، فكانت معركة بور سعيد عام ١٩٥٦م التي أبدى فيها الشعب العربي المصري ضروباً من الشجاعة والبسالة. وقد وقف الشعب العربي السوري وحكومته الوطنية وقفة صلبة ضد العدوان، واستشهد البطل (جول جمال) الطالب البحري في الإسكندرية إذ صمم على المشاركة في ردّ العدوان البحري، وكان لاستشهاده الوقع الرائع وقد أشار الشاعر عبد الكريم الكرمي إلى ذلك في قصيدته (أغنية الموج) التي ألقاها في مدينة اللاذقية فقال:

هذه تربة البطولة فاخشع
والثم المجد طارفاً وتليدا
هي أرضي وكل يوم شهيدٌ
يهب الأرض عزة وخلودا

إنه لم يزل سنا كل قلب
عربي يهدي السبيل الرشيدا
هو ملء الدّنى، وتحمله الريح
إلى عالم البحار نشيدا

ويشاء القدر أن تصاب الأمة العربية بنكسة أليمة، ويصمد شعبها وجيشها في وجه الهجمة الشرسة للدعاية الصهيونية المغرضة التي شنتها للتأثير نفسياً على المواطن العربي في حزيران ١٩٦٧ وكان للأدب دوره الكبير في التحريض على الصمود والمقاومة والاستعداد للثأر، وخاصة في شعر شعراء الوطن المحتل أمثال توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم... وقد سقط المئات من الشهداء العرب في هذا العدوان الغادر.

يقول الشاعر محمد منذر لطفي يرثي الشهيد المقدم الطيار (ناصح علواني) الذي استشهد في أول يوم من معارك الشرف في حرب حزيران عام ١٩٦٧م:

أيا فخر الرجال..وأنت عندي
من الأبطال.. عقباناً.. فحولا
يعزّ عليّ أن ألقاك تهوي
ويطويك الثرى نسراً جليلا
(أنا صحُ) يا منار الخلد فينا
ويا بطلاً تحدى المستحيلا
وكيف.. وذكرك الخفاق بكرٌ
وقد مثلث في العلياء جيلا

نعم.. لقد كان المقدم الطيار الشهيد (ناصح علواني) بطلا ونسراً خاض معركة غير متكافئة مع طيران العدو (الإسرائيلي) مصمماً على تحدي بواشق صهيون، ودفع حياته رخيصة في سبيل الوطن، وسيبقى منارة خالدة تضيء للأجيال طريقها نحو العزة والفخار.

وكانت المقاومة الفلسطينية التي أجج نارها الفدائي العربي الفلسطيني الذي كثف من عملياته البطولية في الأرض العربية المحتلة، يقول الشاعر العربي السوري سليمان العيسى:

"العمل الفدائي.. بداية المقاومة العربية في أرضنا المحتلة.. بداية فاتح نوفمبر جديد.. بداية لفلق أول نواة عربية تهز المقبرة الضخمة الهائلة.. وتحرك مائة مليون رئة معطلة".

ويصدر سميح القاسم شاعر الأرض المحتلة منظومة عن الفدائي، وفيها يهتف:

خلّوا القتيل مكفَّناً بثيابه
ذلوه في السفح الخبير بما به
هل تسمعون؟ دعوه نسراً داميا
بين الصخور يغيب عن أحبابه
خلوه تحت الشمس تحضن وجهه
ريح مطيّبة بأرض شبابه
وعلى السهول الصفر رجع ندائه
يا أبها بالموت لست بآبه

وكان تشرين الذي أعاد للأمة العربية كرامتها المهدورة، فكان الربيع في وسط الخريف.. ففي السادس من شهر تشرين الأول عام ١٩٦٣م قام الجيشان العربيان في دولتي المواجهة مصر وسورية بحرب تحريرية شاملة لاسترداد الأرض العربية المغتصبة، وقد تحققت الوحدة العربية على أرض المعركة قولا وفعلا، واختلط النجيع العربي على صخور الجولان ورمال سيناء، وغنى الشاعر حامد حسن لهذا اليوم الأغر فقال:

تشرين.. لله ما أعطى وما وهبا
جاز النجوم مدى واقتادها لعبا
مر الصباح، ونيسان الربيع على
تشرين فاستوهباه زهوة وصبا
أغليت تشرين، مهّدت الضلوع له
بيتا فرشت له العينين والهدبا
لو رف في كل قلب يائس هدرت
فيه الأماني وقبر هامد وثبا

أما الشاعر (سليمان العيسى) فيشيد بدماء الشهداء التي روت بطاح الجولان ورمال سيناء، فيقول في قصيدة بعنوان (فرسان تشرين):

دم الشهداء ينبت في ربانا
قناديلا يضيء بها النضال
دم الشهداء.. يا أقلام هذا
مداد المبدعين ويا خيال

ويرى الشاعر العربي الفلسطيني هارون هاشم رشيد في حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ عودة للتاريخ العربي الوضاء فيقول:

عودوا إلى التاريخ يا كل المنى
عودا له.. ولتفتح الصفحات
ويلوح (خالد) في الرجال وعقبة
و(الغافقي) وتزخر الطرقات

ومنذ القديم وحتى الزمن الحاضر لم ينقطع سيل الشهادة والتضحية في أمتنا العربية.. فقد سال الدم القاني، وسقى الأرض الظامئة، فأنبتت شقائق النعمان والأقحوان بدم الشباب والشابات بعمر الورد:

مواكبٌ من شهداء العلا
تمشي إلى الموت بعمر الورود

فقد ضحت الشهيدة سناء محيدلي بروحها في الجنوب اللبناني وألحقت خسائر كبيرة بجنود العدو الإسرائيلي. يقول الشاعر جابر خير بك:

يا ابنة المجد وعطر الكبرياء
يا نشيداً رنَّ في أذن السماء
يا فتاة من بلادي فجرت
بالدم القاني صروح الدخلاء
كتبت بالدم في وجه الضحى
ألف بيت ما رواه الشعراء
لوّحت للحشد في راحتها
وهي تمشي في شموخ وإباء
هتف الخلد بصوت واحد
هذه فارسة الدهر سناء

إن مواكب الشهداء من شباب وشابات في عمر الورود وهم يزرعون الدمار في الكيان الإسرائيلي المصطنع لدليل أكيد على معرفة الطريق الصحيح للنضال والتحرير..




حمى الغرام..

شعر: علي الحبيب

حيَّيْتُ مَنْ أنقذتْ روحي برؤياها
غيداء دون العذارى رحت أهواها
حيَّتْ بأهدابها والشِّعرُ أنْطقني
فاحمرَّ من طيبِ ترحيبي مُحيّاها
كأنّها زهرة والعطرُ ماٍ نَشَرتْ
مُذ همَّ من راحٍ مخموراً وحيّاها
باللهِ قولوا لمن أرخت ضفائرَها
حين انتشتْ، وَرَنتْ بالوجد عيناها
ما كنتُ يوسفَ كي أختار عفّتَهُ
بل إنّني عاشقٌ أرجو عطاياها
هذي معذّبتي لم تنس واجبها
جاءتْ تنادمُ صبّاً ليس ينساها
جاءتْ ويا ليتها تدري بما فعلتْ
أتت تُبايعِ مولاها فولاّها
يا مَنْ سلكتم دروب الحبِّ أسألكمْ
ماذا سأفعلُ إنْ بانتْ حلاياها؟
أين الملامةُ إنْ لبّيْتُ رغبتها؟
بعد انتظارِ كوىً جوفي وأعياها
حمى الغرامِ سَرتْ في كلِّ أوردتي
ممّا رأيتُ وهذا الحالُ حلاها
سمراءُ والشَفَةُ اللّمياءُ يسكنها
شهدٌ، وللثلجِ شأنٌ في ثناياها
بالحسنِ ليس لها ندٌّ بما مَلكتْ
في قدِّها من جمالٍ، نحنُ قتلاها
لا عاشَ مَنْ يدّعي أنّ الهوى سقمٌ
للعاشقين ومأساةٌ سننساها
بل إنّهُ السّعْفُ للراجيْن أنْ يجدوا
دُنيا السعادةِ إنْ قالوا سنلقاها
إن الحياة بلا حب ولا أمل
موتٌ بطيءٌ فما الداعي لنحياها




الشاعر القروي كما عرفته أنا

بقلم:

علي محمود إبراهيم

عهد الجهاد الأدبي في سان باولو

قال الشاعر القروي:

"كانت مدينة سان باولو عاصمة الأدب العربي عندما بلغتها مُزدانةً سماؤها ببعض نجوم الأدب. بين كاتب وخطيب. وروائي، وأديب ولكنها كانت تفتقر إلى شاعر. يُحرِّك فيها القافية الخماسية والحسَّ الوطني وكانت الصحف والجمعيات والأندية على ازدياد مستمر. فشرعت الحفلات الأدبية والخيرية، والوطنية، تقوم على قدمٍ، وساق. وكلها تحتاج إلى القصيدة. والأنشودة فتجدُهما على لساني ووتر عودي. ثم كان عهد الانتداب. وانفضاح وعد بلفور المشؤوم. وغليان الخواطر، وشبوب الثورات في العالم العربي. فقويت الحركة الفكرية. وانشطر كتّابُ المهجر. إلى احتلاليين، واستقلاليين. ومُذبذبين.

عندئذ مسَّت حاجة الجالية إلى شاعر ينْشدُها الحانَ الحرِّية، ويمجِّد البطولات. ويذكي الحماسة ويحضُّ على العونِ، والغوث. فأصغيتُ إلي صوت الضمير. وانبريت لتأدية الرسالة منتهزاً كل سانحة ملبِّياً كلَّ دعوة. لا أبغي أجراً ولا شُكراً، بل مكرساً قلبي، ودماغيَ، وصحتي في سبيلِ هذا الواجب الوطني المقدَّس. فلطالما انقطعتُ عن عملي شهراً كاملاً مضحيًّاً بربحي. منفقاً من جيبي لأنظم القصيدة.وأُنظِّم العملَ حتى يخْرج بالنتيجة المرضية. حتى إذا انتهتْ الحفلة بعد منتصف الليل. وبعد أنِ أكون قد أقمتُ الحفل، وأقعدْتُه تحَمّساً وهتافاً. وحملاً على الأكتاف. والأعناق.

ذهبت مطمئناً إلى بيتي على عملٍ وطنيٍّ قمت به وخدمة لأمَّتي، ووطني، وجاليتي."

وهذه بعض الأبيات التي ألقاها في حفلة أقيمت في سبيل منكوبي سورية سنة ١٩٤٥ قال:

شمس العروبة عيل صبر المجتلي
شقِّي حجابَك قبلَ شقِّ الرمس لي
إنّي لمحْتُ سناك في غسقِ الدُّجى
رغم العصابةِ والحجابِ المسدَلْ
لله خطْبُك يا دمشق مجدِّداً
تذكار يوسف والحسين وفيصل

هـــزَّتْ جـــذور الأرز منـــه عواصـــفُ
هوجـــاء تقـــذفُ بالحـــصى والجنـــدلِ
مـــا الـــشام مـــا بيـروت فـــي البلـــوى ســـوى
عينـــيْ مولَّهـــة وحـــدَّي فيـــصل
أرأيْـــت ويحـــك مقلـــةً هملـــتْ علـــى
فقـــد الحبيـــب وأختُهـــا لـــم تهْمـــل

المطران

حدَّثنا ذات مرَّة أنَّ أحد المطارنـة وكـان صديقه طلب إليه أنِ يَضَعَ مقدِّمةً لكتابِـه. ففعـل مطرياً حسناته، ولكنه نعى عليه فتوراً في العاطفة الوطنية. ولم يلبثْ أنَّ قرأ فـي الـصحف حملـة المطران الصادقة في سبيل فلسطين. فسَّره ذلـك. فكتب إلى أحد أصدقائه رسالةً وطلب فيها إليـه أن يزور المطران لأنَّهما كانا يسكنان في مدينة نائيـةٍ عن مدينة سان باولو.

وطلب في الرسالة إلى الصديق أن يحيـيَّ المطران باسمه، ويقبِّل عنه يده. فجاءه الردُّ مـن صديقه يقول: "ما علمتنا تقبيل الأيدِي يا قروي"

فقال: "صدقَ الصديق ولكنيِ أُعلـنُ بـأنَّ الشذوذ في هذا الموقف هو القاعدة. وإنِّي لمستعدٌّ أن أُقبِّلَ أيَّة يد تفيض على العرب بالخير، والفائدة. استعدادي لقطعِ كل يدٍ تتحرَّكُ لخيانتهم، وطعنهم".

ما رأي القروي في الشعر؟

قال:

"إنَّه أرفع الفنون، وقد يسمو حتى يـداني مرتبة الوحي. وللشعر أربابهُ الموهوبون. فلا يعني في نظمه أن تكون سقراط، أو ابـن خلـدون. أوِ ميشيل أنجلـو، أو الفيـروز أبـادي. فالـشاعريةُ كاللانهاية لا حدود لها، فكلما تعدَّدت أجواء الشاعرِ كان أدلَّ على انطلاق روحه، واتساع مملكته، وكل ما يقع تحت الحسِّ.

والأشياء، والمواضيع قديمةٌ كالزمـان ولا جديد إلاَّ ما يخلقه خيال الـشاعر، ويخلعُـه علـى موضوعه من فاتنِ الصور. وجمالياتهـا. ثـم أنَّ الشعراء من يضربُ المثلِ، فيجمع عالماً في بيـت، أو من يبسِّطُ الفكرة فيشيد قصراً ذهبياً من أجـرَّة الطين. ومن ينفضُ مزادة نفسه، فيشبع الملايـين من جياع الروح. وبه تفخر أُمَّتُه وتعتزُ فهو دائمـاً بركانها الثائر، وسيفها المسلول".

وبهذا يقول:

بـــشاعرها فلتفتخـــرْ كـــلُّ أمَّـــة
يهـــدِّدُها بـــالموت طغيـــانٌ
إذا طويـــتْ أعلامهـــا فهـــو بيـــرق
وإن أخمـــدتْ أنفاســـها فهـــو بركـــان

كيف كان ينظم الشعر..؟!

قال: "كنتُ أنظمُ الشعرَ في أيَّة ساعة، وأي مكان. في يقظات الليل، في الشارع، فَي الحافلـةِ، على المائدة، أدوِّنُ الخاطرة عندما تردُني، لا أبحثُ عنها، بل هي التي تبحثُ عني فألتقطُها. هذه حالي مع الشعر، إلاَّ إذا كانتْ القصيدةُ وطَنيةً. سـاعتها أتنزَّى غيظاً، وألماً. فلا تلبثُ أن تتجمَّع الخـواطر دراكاً تلدها القريحة في الغالب، سـوِّيةً، مقمطـة، كاملة الصياغة والوزنِ. وربَّمـا استعـصَتْ علـيَّ كلمةٌ، أو تمنَّعتْ قافيةٌ، أو ركَّـتْ عبـارةٌ فقـضَّ مضجعي، وضاق صـدري، وتـشبث موضـوعي بدماغي، فبات أكبر همِّي أن أتفلت منه. فأسـتعينِ باستراحة قصيرة، واستجمامة خفيفـة. اسـتأنف بعدها صراعي حتَّـى أروض الـصعب، وأقتـنصَ الشارد، فيُسرَّى عني وأطمئنُّ لبلوغي غايتي"

وقال:

مـــن لـــم يكـــنْ حُـــرّاً فلـيس بـــشاعر
ولـــو أنَّ مـــا نظـــم الأرقَّ الأنفـــسَ
الـــنجمُ يعلـــمُ كـــم ســـهرْتُ لأجلـــه
وغمـــست فـــي الـــدمع اليـــراعَ وأغمـــسُ

الشاعر في رأي القروي

قال: "ليس الشاعرُ الوطنيُّ الحرُّ في أمَّـة مُستعْبدة، إلاَّ الشاعر الإنـساني قبـل أيَّ شـاعرٍ سواه، لأنَّ هذه المبادئ التي يُسبِّحُ لهـا، ويُـصلِّي في محاربها، ويُجاهد في سبيلها. ليستْ معبـودةَ وطنه فحسبْ. بل هي معبـودة الأوطـان جميعـاً، ولعمري، أيَّةُ قيمةٍ يجـدُ المتبجِّحـون بإنـسانيتهم

المتخدِّرة في عالمٍ لا حُرِّيةَ، ولا حـق، ولا عدالـة فيه.

وماذا عن فلسطين، وكم كان نصيبها من شعره، وهي التي شغلت حيِّزاً كبيراً في تفكيره، ومساحةً واسعةً في شعره، وقلَّما وقف للإلقاء، أو دخل في حديثٍ إلاَّ وكان اسم فلسطين يسبقُ كل اسم، والحديثُ عنها وعن نكبتها يسبقُ كلَّ حديث"

ويقول عن المشرَّدينِ المبعدين:

أيُّهـا المبعـدُ المـزوَّدُ عـزاً
أيـن للمُتْـرفين فـضْلَةُ زادكْ
يـا شـريداً عـن الـبلاد طريـداً
أنـتِ فـي كـل معبَـد مـن بـلادكْ
كـلُّ مـا فـي أقلامنـاً مـن قـضاء
مُـستمدٌ مـن مرهفـات حـدادكْ
كـل سـبْق فـي شـعرنا وانتـصار
هـو مـن مُلهمـات خيـل طـرادكْ
كـلُّ مـا فـي صدورنا مـن لهيـبَ
هـو إضـرامُ ثـورة مـن زنـادكْ
كـلُّ مـا فـي هتافنـا مـن دويّ
هـو ترجيـعُ نبـضة مـن فـؤادكْ
كـلُّ حـرٍّ فـداك يـا فـادي الأرض
وأولاده فـدىً أولادكْ

مقياس الوطنية

"للمحبَّة الوطنية ميزانٌ حراري، ولحبّ الذات هذا الميزان نفسُه فإذا أهانك جارك الخَبَّاز رُحت تشتري الخبز من فرن بعيد لأنك تُقدِّم كرامتك على راحة قدميك. وإذا اعتلَلْت استدعيت الطبيب، لأنَّ صحتك أعزُّ من جني يديك. وإذا سطا اللئام على دارك، استقبلت الموت بصدرك. لأنَّ عرضك أغلى من النسمة التي بين جنبيك. وقد أنزل الأعداء هذه الضربات جميعاً على أشدِّها بوطنك. فإلى أيِّ مدى بلغت غيرتنا عليه."

وأردف قائلا: "ما كدت أنهض على قدميَّ حتى صكت مسمعي أنَّاتُ أمَّتي، ولفحت وجهي زفراتها فطويت جناحي عند سريرها مقدِّماً واجب تمريضها، والذود عنها. متغنِّياً بأمجادها، وبطولاتها، وما ملكتْه من عزٍّ ومروءة، وجاه، سلبَ اللصوص نصيب أُمَّتي من خبزِ الحرية، والعدالة والحق، وغادروها مدنفة تدميها القيود، وتوجعها الجراح. والحق والحرِّية، والعدالة هي أسمى الأماني التي ينشدها الإنسان الراقي.

بل أغلى الجواهر الروحية، وأثمنها، وأعزها. ولا يحيا قلبٌ بشريٌ نبيلٌ إلاَّ بقطر نداها، ولا يمكن أن يرى الإنسان جمالا، وسعادةً في هذا الوجود إلاّ بانعكاس أنوارها. وما شعري الحماسي، إلاّ ألم صارخٌ في أغوار نفسي فهيَ دائمةُ الحنين، والتوجّع لفراقها، والسَّجع بذكراها واستنزالَ بركاتها"

وقال:

نحـن قـومٌ فَتَنَتْنـا مُثُـلٌ
مـا لـنفس الحـرٍّ عنهـا مـنْ محيـد
أنْجبتنـا أمَّـةٌ مـا برحـتْ
تَنْجِـبُ الأبطـال مـن قبـلَ ثمـودَ
كلّمـا قيـلَ انطـوتْ أعلامُهـم
وانطـووا هبّـوا إلـى مجـد جديـد
فارتقـبْ يـا أيهـا المـزريِّ بنـا
لـيس يـومُ البعـث منّـا ببعيـد
كلَّمـا استـشهد منَّـا بطـلٌ
هتـف الأجـداد أهـلاً بالحفيـد

طالب القروي بوحدة الأمة العربية، في أكثر من موقف وأكثر من قصيدة، ودافع عن قضيتها، دفاع المؤمن بها. المحبِّ لها، والمتفائل بانتصارها رغم كلِ العراقيل والمعوِّقات. ولقد ولد شاعرنا بعثياً عربيّاً. قبل أنْ يولد حزبنا العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي. وهذا ما أكده بقوله في قصائده العصماء الوطنية الحماسية ومنها القصيدة التي ألقاها في حفلة عيد الفطر المشهورة سنة ١٩٣٣ حيث قال:

صـياماً إلـى أنْ يُفطـرَ الـسيف بالـدم
وصـمتاً إلـى أن يـصدح الحـقّ يـا فمـي
أفطـرٌ وأحـرارُ الحمـى فـي مجاعـة
وعيـدٌ وأبطـالُ الجهـاد بمـأتمِ

١

هبوني عيداً يجعلُ العربَ أمَّةً
وسيروا بجثماني على دينِ برهمِ
لقد مزَّقتْ هذي المذاهب شملنا
وقد حطمتنا بين نابٍ ومنسمِ
سلامٌ على كفرٍ يوحِّدُ بيننا
وأهلاً وسهلاً بعده بجهنَّمِ

ولقد خاطب لبنان واللبنانيين في حفلة أُقيمت في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الدكتور خليل سعاده سنة ١٩٣٥ قائلا:

نبِّه جفونكَ من لذيذ منام
طلعَ الصباحُ على ربوعِ الشامِ
ما ضرَّ من أفنى الحياة مُسهّداً
إنْ بات يوقظ مرَّةً في العام

إلى أن يقول وكأنَّه كان يستكشفُ أحداث اليوم:

لبنانُ ملّ سريره وأبلَّ من
شللِ الخمول وغمرة الأوهام
لبنان يا وطن الجمال قلوبنا
أفضت إلى موت بغير سلام
كم قد نصحتكَ فاتهمْتَ نصيحتي
أفأقنعتكَ حوادثُ الأيام
يهديكَ نورُ العقل يا أعمى ولا
يهديكَ غير الله يا متعامي
أسْلمتَ لِلأمِّ الحنون فقل لنا
أوجدْتها خيراً من الإسلام
يمشي الغريبُ إلى خوانكَ ساخراً
ويؤوب بالإجلال والإكرام
كرمُ الخلال جنى على أربابه
يا ليتَ أهل الشام غير كرام

العروبة والبرامج والأحزاب

هذه الأسماء الثلاثة هي عنوانٌ لنص كتبه الشاعر جواباً على سؤال وجهه بعض الشعوبيين الهازئين وفيه يقولون ما العروبة؟ فقال:

"قولوا لهم. العروبة شعار الأمَّة العربية. وروحها وشمسُ أوطانها، ومهوى أفئدتها، ومُلتقى ما تعدَّد من أقاليمها. وأمصارها. العروبة دينُ الأمَّة الشامل. وبرنامج العروبة ليس أبْجدية موادَّ وبنودَ. بل هو معانٍ تعْمُرُ بها القلوبُ. ومناقبُ حفلَتْ بها سيرُ إبطالكم. وبدونِ هذه المعاني وهذه المناقب، باطلٌ كل مجْلس، وكل حزب وكل المبادئ التي لا صلةَ لها بقضية الأمَّة، ومصيرها. العروبة روح حاتم، ومعن، والمسوأل في سلوك كل نبيل عربي. وروحُ عنترةٍ، وطرفةَ، وامرئ القيس، والمتنبّي في خيال كل شاعرٍ عربي، وروح طارق وخالد. وصلاح الدين ويوسفَ العظمة على سيفِ كل جُنْديٍّ عربي. وروح علي، وأبي بكر، وعمر. على قلبِ كل مُتسلط عربي.

العروبة ليسَتْ أحواضاً للسِّباحة في نادٍ هنا، ونادٍ هناك. بل هي بحرٌ محيطٌ يضمُّ أرْخبيلَ أقطارنا، وتجْري فيه رياحُ تضامُننا، كما تشتهي سفنُ أمانينا.

العروبةُ أن يشعر اللبناني أنَّ له زحْلةَ في الطائف، والعراقي أنَّ له فراتاً في النيل. والمصري أنَّ له أهراماً في دمشق. ويقولون فشلتْ العروبةُ. قولوا بل عوّقت عن النصر إلى حين. على شاطئِ وحدتها يتكسَّرُ الاستعمارُ. وعند أفاقها يقفُ زحْفُ الليل.

ولغةُ العروبة. هي هذه اللُّغةُ الخصبةُ الخلاَّقةُ المبدعةُ المطواع. لغةُ أهلِ الجنَّة. اللُّغةُ التي اتسعتْ لرسالة الرحمن والتي يتناشدُ ألحانها بلابلُ الشعرِ من الخَليج إلى المحيط. والتي ملكتْ فصْحاها ألْسنة أفراد الأدبِ العربي. وكلُّ من يقول عكس ذلك فهو مارقٌ لا تُصدِّقوه. وكافرٌ بها وبكم فلا تأمنوا عليه. ولا تأتمنوه.

نداء

وجّه الشاعر القروي نداءً إلى فتيان أمّته. فقال:

"يا إخواني يا فُتيانَ أمَّتي. لقد كثر بينكم قادةٌ عُمْه يوقعُونَ في قلوبكم أنَّكم غيرُ قادرين على تحقيق أحلامكم وأمانيكم، في تجسيد وحدتكم. فلا

تُصدِّقوهم فما ضلَّ امرؤ غايته وهو يمشي إليها بثقة وعلى صراط سوي.

يا فتيان أمَّتي لا تيأسوا رغم كلِّ ما يضعون من عراقيل ومعوِّقات فر طريق وحدتكم. الصهيونية والغرب من ورائها يريدون أن يتملَّك اليأسُ، والقنوط في نفوسكم فلا تسمحوا لهم بتحقيق هذه الأمنية.

وضعوا نصب أعينكم هدفكم الغالي الذي تحقَّقْتُمْ من خلال التاريخ بما يزْخر من أدلَّة، وأمثلة. إن انتصاركم لن يكون إلا بوحدتكم. لأنَّ بالوحدةَ القوَّةَ، والمنعةَ. وفي التفرقة الهلاك والموت. وكفانا من الغرب ما لاقينا:

كفانا من الغرب ما نالنا
وحسْبُ تعصُّبنا ما جَلَبْ
لنا مجدُ صورَ وغرناطةَ
إذا الغربُ يوم الفخار انتسبْ
وقبلَ الجميعِ وبعدَ الجميعِ
وفوقَ الجميعِ، ليحيي العربْ

الخاتمة

تحدَّثت مطوَّلاً عن حياة هذا الشاعر المهجري الكبير وقدَّمتُ بعض الأمثلة من شعره، منها ما تناول فيه بعض نواحي حياته الخاصة، ومنها ما قاله بحِسٍ وطنيٍ صادق. ومنها ما ذهب فيه إلى أمور أخرى.

وبقيَ أن نعرض طرفاً من الناحية الإنسانية وله في هذا المجالِ جولاتٌ، ومواقف. فالقروي لم يكن شاعراً عربياً فحسب، بلِ شاعراً أممياً تناول في شعره قضايا الناس كلِّ الناس، بغض النظر عن ألوانهم وأوطانهم، ومذاهبهم، وأديانهم فوصف الدواء للكثير من أنوع الداء.

وتحدَّث في شعره في مواطن عديدة عن قيمة الإنسان وخالقِ الإنسان وأشار إلى تلك العلاقة التي تربط المخلوق بخالقه فقال:

"رُحمت فنلت بالإيمان ما لم
ينل من جابل ماءٌ وطين
فحسبي أنَّني عبدٌ حقيرٌ
وأنَّ الله حارسي الأمين"

وقال في تضارب المصالح، والأهواء:

هبَّت الريح فملاَّحٌ شكا
عند مجْراها وملاَّحٌ شكرْ
ليس في الريح ولا في البحر بل
في هوى الأنفس ما شاء وسرْ
سفن الأعمار إذ تجري بنا
ليس في قاموسها خيرٌ وشرْ
تلفظ الحكم أنا نيِّتنا
ثم تعزوه إلى حكم القدرْ

ويقول عن وجوب التفاؤل وعدم اليأس والاستسلام:

إن شئت عشْ أو شئتَ مُتْ
إنَّ الحياة لها شروطْ
نُوَبٌ وأحزانٌ يُبيِّضُ
هولُها سود الخيوطْ
ومعاركُ الأطماع ناشبةٌ
على كُلِّ الخطوط
والفوزُ بالنَّفس القويَّة
لا بهيكلها منوطْ
فلطا لما سقط الشُجاعُ
وقام منْ بعد السقوطْ
ليستْ مُصيبتكَ المُصيبةَ
بل مُصيبتُكَ القنوطْ

وقال يشكو من حاله ويُشير إلى أنَّه ينفعُ بشعره، ولا ينتفعُ منه:

كأنِّي سرتُ من أدبي بقفْر
وما لي ملجأٌ من حرٍّ شمسةً

خيالي جنَّةٌ لكنْ لِغيري
ومن ذا يستظلُّ بظلِّ نفسهْ

وقال في لين الجانب والاعتراف بالخطأ، ثم الاعتذار عنه:

إذا صدرت عنكَ الإساءةُ فاعترف
بها واعتذر إنْ كُنتَ حُرّاً مُهذَّبا
فإنْ قبل المستاءُ عُذراً شكرته
وإن هو لم يقبلْ برئتَ وأذنبا

وكرامة الإنسان، وعزّة نفسه هي أغل ما يمتلكه الإنسان وفي هذا قال:

لا ترض صفْعاً ولو من كفِّ والدةً
ما قال ربُّك أن يُستعبد الولدُ
ما ابعدَ العزَّ عن بيت وعن وطن
بالذُلِّ فيه تُربِّي الأمُّ من تلدُ
إذا استمرَّ على حملِ الأذى أسدٌ
تنسى الكلابُ وينسى أنَّه الأسدُ

ويتحدَّثُ عن الاشتراكية الصحيحة فيقول مُخاطباً الإنسان:

من حبَّة القمحِ اتَّخذْ مثل الندَّى
يا من قَبضْتَ عن الندى يُمناكَ
هي حبَّةٌ أعطتكَ عشر سنابلِ
لتجودَ أنتَ بحبةٍ لسواكَ
حَلمتْ بأنْ ستعيشَ في خُبز القرى
فتراقصتْ للموت نحو رَحاكَ
وكأنَّما الشَّقّ الذَي في وسطها
لكَ قائلٌ نصفي يخصُّ أخاكَ

كان القرويُّ عزيز النفسِ لم يتكسَّبْ بشعره وقد ترفَّع به عن كلِّ ما يُدنسُه من غرض المادَّة لهذا عاش فقيراً، وماتَ فقيراً وهو القائل عن نفسه:

لَئنْ لم أكُنْ أشعرَ الشاعرين
ولم أجن منَ أدبي فائدهْ
فحسبي أنْ صَنْتَ ماءَ الجبين
وتلكَ قصيدتي الخالدهْ

ويقول في الاتّزان والتروِّي وعدم الانجرار بالغضب إلى الخطأ، والانزلاق:

إذا احتدم الجدالُ فكُنْ رزيناً
وأجملْ في المناقشة الخطابا
ولا تغضبْ فكم خصْمٍ عنيد
خلقتَ من الهدوء له اضطراباً
وهبْ في الرأي كنتَ على صواب
فقدْ ضيَّعْتَ بالغضبِ الصواباً

وكان يحبُّ حرية الرأي ويقول: "لكلِّ امرئ ما رأي، وهو المسؤول عن رؤاه، ولا تطْلبْ من أحدٍ ما لا ترضاه لنفسك"
وقال عن هذا:

وإنِّي لآبى أن أُطالبَ صاحبي
بكرْهِ عدوِّي أو بحبِّ صديقي
وكم صَاحب يقلاكَ إن لم تُجاره
بذمِّ فريقٍ أو بمدح فريقِ

وقبل أن أُنهي حديثي عن هذا الشاعر العملاق، لا بد أن أشير إلي أمرٍ أعتبره من الأهمية بمكانٍ ألا وهو تلك الصداقةُ المتِّينةُ التي كانت تربطُ بين الشاعر القروي، والسيد الدكتور عبد اللطيف اليونس. فقد كانا علمين من أعلام المنابر في تلك الحقبة الزمنية التي عاشاها جنباً إلى جنب في مدينة سان باولو البرازيل.
وبحق أقول إنَّ تلك الفترة كانت أغنى، وأرقى فترة عاشتها الجاليةُ العربيةُ في البرازيل في مجال اللّقاءات الأدبية، والفكرية، والخطابية. فكم أشعلتْ الحماسَ القومي في النفوس، ووثَّقتْ عرى التواصل، وعزّزتْ ونمّتْ الشعور القومي،

والوطني لدى أبناء الجالية. فقد ذكرت من أغفل، وأيقظت من نامَ وعاتبت من استرخى.

وكان أبناءُ الجالية العربية يترقبون المناسباتِ الوطنيةَ. بشوقٍ وحنين، لأنَّهم يعلمون أن الاثنينَ معاً الدكتور والشاعر أو على الأقل واحداً منهما سيكون البلبلَ الشادي في هذه الحفلة أو تلك، ولأنَّ مثْل هذه اللقاءات الأدبية الشعريةَ والخطابية، لا يمكنْ أن تفوتَ أحداً منهما، فقد كانت الحشودُ من أبناء الجالية العربية تملأُ فضاءات الأنديةِ العربية قبل بدء الاحتفالات بوقتٍ غيرِ قصيرٍ.

وكما قلتُ في البداية. فإنَّ الصداقة الحميمة التي كانت تربط بينهما، والاحترام المتبادل، لم يكن يأتي من مصلحة ماديّة، أو قرابة عائلية، أو ما شابه ذلك من مصالح ضيِّقة، بل كانت تنبعث من مشاعر قومية صادقة، وأحاسيس وطنية نبيلة لها هدفٌ واحد وغايةٌ واحدة، هي حبُّ الوطن، والدفاعُ عن قضاياه العادلة ضدَّ أعدائه في الداخل، والخارج.

ومن هنا كنَّا نرى أنَّ هذه الروابط الروحية، والعلاقات الحميمية النقية بين الطرفينِ كانت تزداد قوَّةً، وعمقاً مع كل يومٍ، وفي كل ساعة، وعند كل لقاء.

وقد كتب القروي قصيدةً طويلةً ذكر فيها بعض ما يعرفه. من حميد السجايا، وجميل الصفات عن شخص صديقه الدكتور عبد اللطيف، وعن جهوده، وجهاده في الدفاع عن الحق العربي، وقضايا الأمَّة العادلة.وتحدَّث في أكثر من مناسبة عن الرصيد الكبير الذي حققه في ساحات الجهاد الأدبي، والسياسي، والصحفي.

وقد تجلت، أعماله النبيلة هذه وتجسَّدت في دنيا الاغتراب. من خلال الجريدتين اللَّتين أسَّسها هناك. الأولى (جريدة الأنباء) في البرازيل. والثانية (جريدة الوطن) في الأرجنتين بعد أن نقل ميدان جهاده إلى ذلك البلد. وكانت (الأنباء) تصدر باللغتين العربية، والبرتغالية (والوطن) باللغتين العربية والإسبانية. وكانت الافتتاحيات من الدور الفاعل، والمؤثر في الردِّ على الادعاءات الصهيونية الكاذبة، والافتراءات المغرضة. يفنِّدها بقلمه الجريء، ويبيِّن للقارئ الأجنبي، والعربي سوء مقصدها، في النيل من القضية العربية، والجالية العربية.

ومن منَّا لا يعرف بعض الأهداف الجليلة والغايات الشريفة، التي حققها الدكتور عبد اللطيف اليونس من خلال اقتراحاته، وأرائه، تحت قبة البرلمان السوري، عندما كان أمين سرِّه، وعضواً بارزاً من أعضائه في ذلك الزمن، ولست هنا في مجال عرض وإحصاء، وتعداد هذه المكاسب الوطنية، والشعبية، فقد كانت كثيرةً ومتنوعةً ولكن ما يهمني منها الآن، هو الاقتراح الذي قدّمه إلى المجلس بشأن شاعرنا الكبير القروي طيَّب الله ثراه. فقد طلب له راتباً شهرياً يعيش به مدى الحياة. تكريماً له ولمواقفه الوطنية الصادقة، ونزعته القومية النقية.

ووافق المجلس على هذا الاقتراح بالإجماع، وظلَّ هذا الراتب يصله إلى آخر يومٍ في حياته، تحت رعاية الحكومة السورية بتوجيه، واهتمام القائد الخالد حافظ الأسد.ويطيب لي بالمناسبة أن أذكر البيتين اللذين خاطب بهما الشاعر القروي صديقه الدكتور عبد اللطيف حيث قال:

لعمري ما حببت اسم عبدٍ
ولو صاغوه من ذهبٍ طريفٍ
ولكن تزدهي نفسي وتزهو
إذا ناديت يا عبد اللطيف

وهكذا وبعد هذه الرحلة الطويلة، لبّى الشاعر القروي دعوة خالقه بعد عمر ناهز السبع وتسعين سنةً قضاها في الجهاد، والعمل الوطني المقدَّس. توفي سنة ١٩٨٤ ودفن في قريته (البرباره).

وانطوت صفحة هذا الشاعر العربي الفذ. بعد رحلته الجهادية التي نذرها لقضية أمَّته العربية مجاهداً ومناضلاً بقلمه الراعف الجريء الذي صاغ منه السِّلاح الذي لا يكلُّ، ولا يصدأ.

رحم الله رشيد سليم الخوري (القروي) وجزى روحه الجزاء الأحسن. لما قدَّمه في سبيل شعبه، ووطنه، وأمَّته.

هذا بعض سليمان

– ولد الشاعر سليمان العيسى عام ١٩٢١م، في قرية النُعيرية – حارة بساتين العاصي – الواقعة غربي مدينة أنطاكية التاريخية على بعد عشرين كيلو متراً.

– تلقى ثقافته الأولى على يد أبيه المرحوم الشيخ أحمد العيسى في القرية، وتحت شجرة التوت التي تظلل باحة الدار، حفظ القرآن الكريم، والمعلقات، وديوان المتنبي، وآلاف الأبيات من الشعر العربي، ولم يكن في القرية مدرسة غير (الكُتَّاب) الذي كان في الواقع بيت الشاعر الصغير، والذي كان والده الشيخ أحمد يسكنه، ويعلِّم فيه.

– بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة. كتب أول ديوان من شعره في القرية، تحدث فيه عن هموم الفلاحين وبؤسهم.

– دخل المدرسة الابتدائية في (مدينة أنطاكية) – وضعه المدير في الصف الرابع مباشرة

– وكانت ثورة اللواء العربية قد اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصله عن الوطن الأم سورية.

– شارك بقصائده القومية في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء اللواء ضد الاغتصاب وهو في الصف الخامس، والسادس الابتدائي.

– غادر لواء الإسكندرونة بعد سلخه ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي، وواصل دراسته الثانوية في ثانويات حماة واللاذقية ودمشق. وفي هذه الفترة ذاق مرارة التشرد وعرف قيمة الكفاح في سبيل الأمة العربية ووحدتها وحريتها.

– دخل السجن أكثر من مرة بسبب قصائده ومواقفه القومية.

- شارك في النشاط السياسي منذ البدايات وهو طالب في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق في أوائل الأربعينيات.

- أتم تحصيله العالي في دار المعلمين العالية ببغداد، بمساعدة من العراق.

- عاد من بغداد وعُيّن مدرساً للغة والأدب العربي في ثانويات حلب.

- بقي في حلب من سنة ١٩٤٧-١٩٦٧م، يدرِّس ويتابع الكتابة والنضال القومي.

- انتقل إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية.

- كان من مؤسسي (اتحاد الكتاب العرب) في سورية عام ١٩٦٩م.

- متزوج. له ثلاثة أولاد: معن، وغيلان، وبادية.

- يحسن الفرنسية والإنكليزية إلى جانب لغته العربية، ويلم بالتركية.

- زار معظم أقطار الوطن العربي وعدداً من البلدان الأجنبية.

- اتجه إلى كتابة شعر الأطفال بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م.

- شارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض في ترجمة عدد من الآثار الأدبية، أهمها آثار الكتاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية.

- شارك مع زوجته وعدد من زملائه في ترجمة قصص ومسرحيات من روائع الأدب العالمي للأطفال.

- في تشرين الأول (أكتوبر) حصل على جائزة (لوتس) للشعر من اتحاد كتاب آسيا وإفريقية.

- وفي عام ١٩٩٠م انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق.

في عام ٢٠٠٠م حصل على جائزة الإبداع الشعري، مؤسسة البابطين.

أهم أعمال الشاعر

١- الأعمال الشعرية (في أربعة أجزاء) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢- على طريق العمر: معالم سيرة ذاتية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣- الثمالات - بأجزائها - الهيئة العامة للكتاب، صنعاء ٢٠٠١م.

٤- الديوان الضاحك، دار الشورى، بيروت ١٩٨٢م.

٥- باقة نثر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٣م.

٦- الحنين (شعر ونثر) وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٤م.

مجموعات شعرية مستقلة

أ . ديوان فلسطين، دمشق، دار فلسطين ١٩٩٦م.

ب. ديوان اليمن، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

ج. ديوان الجزائر، الجزائر ١٩٩٥م.

د. المرأة في شعري، أبو ظبي، المجمع الثقافي ١٩٨٠م.

هـ. موجز ديوان المتنبي، دار طلاس، دمشق ١٩٨٠م.

و. حب وبطولة (مختارات)، دار طلاس، دمشق ١٩٨٠م.

ز. ديوان عدن، جامعة عدن، ٢٠٠٤م.

ك. أنا وجزيرتنا العربية قيد الطباعة الأخيرة

ل. أنا ومصر العربية المجلس الأعلى للثقافة.

ي. ديوان اللواء شعر ونثر قيد الطباعة وزارة الثقافة اليمنية.

أهم الأعمال للأطفال

١- ديوان الأطفال، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠م.

٢- أغاني الحكايات، أبو ظبي ٢٠٠٢م.

٣- مسرحيات غنائية للأطفال، بيروت، دار الشورى ١٩٨٠م.

٤- شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال، دار الأدب، بيروت ١٩٧٨م.

٥-قصص الأطفال المعربة: بالاشتراك مع الدكتورة ملكة أبيض وبعض الزملاء، صدرت عن دار طلاس ودار الفكر بدمشق، وما تزال تصدر تباعاً عن دار الفكر.

ما ترجم له

١- الفراشة وقصائد أخرى: نقلتها إلى الإنكليزية الشاعرة برندا ووكر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٤م.

٢- رائحة الأرض: نقله إلى الفرنسية الشاعر اتاناز فانشيف دو تراسي، دار طلاس، دمشق ١٩٨٧م.

٣- الشجرة: ديوان شعر للأطفال، ترجم إلى الروسية وصدر في موسكو ١٩٨٤م.

٤- أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقله إلى الإنكليزية عبد الله كامل، وصلاح مقداد، صدر عن دار الحكمة في لندن ١٩٩٢م.

٥- أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقلته إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض، طبع في الجزائر - العاصمة - ٢٠٠١م.

٦- قصائد مختارة: نقلتها إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض بالتعاون مع مبروك مبارك، وزارة الثقافة، صنعاء ٢٠٠٤م.

٧- اليمن في شعري، وزارة الثقافة، صنعاء ٢٠٠٣م.

٨- أوراق من حياتي، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٣م.

أهم ما كتب عنه

١- مع سليمان العيسى: مجموعة من الكتاب - دار طلاس، دمشق ١٩٨٤م.

٢- سليمان العيسى - ثمانون عاماً من الحلم والأمل - الجرادي، إبراهيم، تحرير وتقديم - المقالح، عبد العزيز، إشراف عام - دار الرائي، دمشق ٢٠٠٠م.

٣- وقفات مع سليمان العيسى، أبيض، ملكة، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء ٢٠٠١م.

٤- رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة نابولي - إيطاليا، كالا بريزي، آنا ماريا ١٩٩٥م.

سليمان العيسى في نبرته الهادئة

بقلم الدكتورة:
ملكة أبيض

عُرِف سليمان العيسى شاعراً قومياً جماهيرياً، بدأ إلقاء الشعر على أطفال قريته..

ثم على رفاقه في المدرسة.. فعلى مواطنيه في (نادي العروبة) بأنطاكية.. وفي شوارعها.. همُّه الأول لم يكن الشعر.. بل النضال في سبيل قضية كبرى:

لست شاعراً..
أرضُ الآباء والأجداد، أمُّ الشعر،
وخالقةُ الشعراء،
تريدني شيئاً آخر..
تريدني حُلماً أصلب من الحقيقة،
وأكبر من الواقع،
وأبعد من حدود (الجُثَّة) التي تتحرك
ما بين المحيط والخليج..
تريدني عربياً.. يبحث عن هُويته..
عن جوهر وجوده..
عن جذوره العميقة في أرضه،
يبحث عن أمته..
نعم، عن أمته العربية

وسار في هذا الدرب الشائك ما يزيد على نصف قرن.. وهو يقاتل بالكلمة، بصوت مُدَوّ، بل ومجلجِل، في معظم أرجاء الوطن العربي، وتلقّته جماهيرُ عطشى.. تتوقف إلى الخلاص من الهاوية التي أوقعتها فيها عصورُ التجزئة والاحتلال.

كانت تردّد معه مثل هذه الصيحة:

أمةُ الفتح لن تموتَ، وإنــي
أتحدّاكَ - باسمِها - يا فناءُ

وتجيء كارثةُ حزيـران عـام ١٩٦٧م التي قال فيها:

الكارثةُ تفلُ روحه..
تسدُ عليه المنافذ..
تذبحُ في عينيه النور، تدفنه حياً..
طَوالَ عام كامل
لم يستطع أن يقول بيتاً..
أن يكتبَ كلمة..
طَوالَ عام كامل كان يتنفَّس الذُلّ
ويختنق بالعار..
ومن يختنق فإنه لا يستطيع أن يكتب)

تلك كانت بداية انهيار الحلم.. وتلتهـا الخيبات.. واحدة إثْر أخرى. ويحمـل الـشاعر أحلامه الموءودة وينهض.. يبحث عن كُـوىً للأمل والحركة..

ويبدأ من جديد.. مرةً بعد مرة. ومع كل بداية كانت النبرةُ تَخْفُت، والحكمةُ تحلُ محـل الاندفاع.

في أدب الأطفال الذي اختـار اللجـوء إليه، مع اشتداد الضربات، تناولَ موضـوعاتٍ تتصل باهتمامات الصغار وحاجاتهم، فُتحـدث عن الطبيعة، والألعاب، والهوايات، والأسـرة، والمدرسـة، والأحـلام والآمـال، والعمـل، والوطن..

ونوَّع طرق المخاطبة، فقـال الـشعر، وكتب المسرحية والقصة الواقعية، والخياليـة، وعرَّب آثاراً أجنبية لإغناء هـذه التجربـة، أو شارك في تعريبها.

وفي نتاجه للكبـار رأى الابتعـاد عـن الأحداث المباشرة بقدر يُتيح الإصغاء إلى العالم الخارجي، وتأمُّل ما وراء الواقع، وإلى عالمـه الداخلي الذي أغفله فيما مضى، أو قل صَـهَره في الهم العام ففي (الثمالات) بأجزائها الخمسة، وغيرها من نتاجه خلال هذه الفترة الأخيـرة، توزَّع نتاجه بين الشعر والنثر، وبين عدد كبير من الموضوعات التي أراد فيها أن يقدّم نفسه للقارئ بكل ما فيها من انفعالات وأفكار ورؤى وهواجس.

ولا أدلَّ على هذا التنوع من التعريـف الذي يعطيه فيها للقصيدة، والذي يقول:

القصيدة..
تكونُ في اللون، وفي الغناءْ
في سكرةِ القُبلة..
في غدائرِ امرأةْ..
في وقفةِ الشموخ والإباءْ
وفي جنون الحبْ..

في هدأةِ المساءِ،
في نيران مدْفأةْ..
في نقرةٍ على ضُلوع العودْ
في غيمةٍ ترحلُ لا تعودْ

وأودُ في هذه الكلمة السريعة أن أقدِّم نماذج عن هذه القصائد الهادئة التي يبوح فيها عن مشاعره.

من هذه النماذج قصيدة صغيرة يعبّر فيها عن نفوره من المشاحنات حول القضايا التي خاض فيها المبدعون والنقاد في أيامه: الحداثة والتقليد، الشكل والمضمون، الالتزام والتحرر.. إلخ، فيقول:

خَلِّني في الظلِّ..
إنَّ الظلَّ أغنى
إنه أبهى، وأَسْنَى
إنني أَملُؤه.. يَمْلَؤني
فكراً وفناً
وشروداً في فجاج اللا نهايات،
وإمتاعاً، وحُسْنا..

ومنها القصيدة التي رثى فيها الشاعر نزار قباني، وهي تمثل نوعاً جديداً في هذا الباب، وسأكتفي بمقطع منها:

قالتِ الأزهارُ يوماً:
ماتَ شاعرْ..
وحنَتْ أوراقَها حزناً عليْه
تنتمي الأزهارُ والعطرُ
إلى الشعرِ، إليهْ
ينتمي الروضُ وأسرابُ
العصافير إليهْ..
ينتمي ماءُ الجداولْ
تَكْبَرُ الأعشابُ إذْ تُصغي إليه والسنابِلْ
قلتُ: بل ماتَ جَسَدْ
حَطَم الصخرُ على الشطِّ الزَّبَدْ.
لا تموتُ الكلمةْ..
(إنَّها في البَدْءِ كانَتْ..)
وستبقَى الشاعرَةْ...

إنها قصيدة هادئة إلى أبعد الحدود، في مواجهة قضية الموت، موتِ شاعر.

هل يموتُ الشعرُ بموت قائله.. أم يبقى صدىً بعده؟ وإذا ما بقيَ، فهل يملكُ الحياة والعنفوان الذي يُضفيه عليه الشاعرُ حين يُبدع؟

في آخر القصيدة إجابة قاطعة على لسان القصيدة نفسها:

إنَّني بِنْتُ الحياةْ..
ورَقُ الوردِ، كبيتِ الشعرِ،

لا يُقْنِعُه رَجْعُ الصدى
أَعْطِني الصوتَ، وخُذْ رَجْعَ الصَّدى
إنني أوثر أن أحيا،
وأَنْ تَحْيَوْا معي،
ولْنَقْتَسِمْ مجدَ العطاءْ.

وقبل أن أُنهي هذه النماذج أرى أن أتوقفَ قليلاً عند قصيدة غَزَل أو حنين بعنوان (مسافرة)، كتبها الشاعر في مطلع ٢٠٠٦م، أثناء غياب رفيقته في رحلة اضطُرت إلى القيام بها بمفردها، وفيها لا نكاد نعرف ما الشعور الذي كان يريد أن يعبّر عنه من خلالها هل هو الشوق؟ هل هو القلق؟ هل هو الفراغ الذي أحسَّه بغيابها؟ هل هو كلُّ ذلك؟ لِنستمعْ إليه يقول:

أُفَتِّشُ عنكِ في الأُفُقِ
أُفَتِّش في حنايا الغيمِ..
في الليلِ..
الذي ينداحُ في عيني
أمواجاً منَ الأَرَقِ
أُفَتِّش عنكِ في نومي، وفي صَحْوي،
وفي فجري، وفي غَسَقي
أُثَبِّتُ في الرصيفِ عَصَايَ،
إني خائفٌ، جازعْ
أُفَتِّشُ عنكِ..
كيف بلا يَدَيْكِ سأَعْبُرُ الشارعْ؟
أُفَتِّشُ عنكِ..
حينَ أُديرُ مفتاحي بباب البيت،
أُخفي عنه..
كُلَّ هَواجسي، قَلَقي
مُسافِرةٌ؟
مَتَى تأتينَ؟
ينهمرُ السؤالُ غَمامةً،
أتهَدُّ فوق عَصايَ،
أَبحثُ في ضَبابِ رُؤايَ
عن خيطٍ من الشَّفَقِ..

وهنا، لابد لي من القول: إن سليمان الشاعر في نَبرته الهادئة لا يختلفُ جَذْرياً عمَّا هو في نبرته العالية، الصاخبة:

إن الكلمة الجميلة تستطيع الوصول إلى أعماق السامعين وتهزُّهم سواءٌ أكانت عاليةً، أو خافتة. وما يعطيها جمالها هو الهم الذي تحمله بظلاله وألوانه التي يلقيها على كل ما يمرُّ بالشاعر في شريط حياته الذي نسمّيه العمر:

الحزن، الفَرَح، الحب، الطبيعة، المرأة، الوطن، الأطفال، الناس، الأصدقاء، الخصوم.. إلخ. وهذا الهمّ هو السمة الأولى لنتاج الشاعر، وهو الطابع المميِّز لكل ما قاله، والنهر الذي تتفرع عنه كل السواقي.

ألق الكلمة وديمومة الحضور الجميل

بقلم الدكتور:
علي القيّم

الكتابة عند شاعرنا العربي الكبير الأستاذ سليمان العيسى بقاء فهو ما زال يكتب ويمارس الأرق بكل حيوية ونشاط وشوق إلى ملاعب الطفولة.. ما زال يواصل رحلة البحث المستمر عن ألق الكلمة وديمومة الحضور الجميل والمشرق في حياتنا الأدبية والثقافية.

ما زال يكتب عن موضوعات شتى، يعود فيها إلى ذكرياته وملاعب طفولته، ويسجل ملامح من رحلاته وأحاسيسه وانطباعاته المشرقة، معها بكل ما فيها من علاقات إنسانية، ووميض إبداعات لشاعر كبير خبر الحياة والناس.. في دواوينه وكتبه الأخيرة.. عودة إلى الطفولة وعناقيد الدالية، وإلى الزمان، ليقوم شاعرنا الكبير بعصر بعض النغم، ليقول لنا: مزامير البوح لا تنضب ولا تتعب، تخبئ جمراتها في الرماد، ويهفو الفؤاد، وينهمر المطر المستعاد.. وتبقى الدروب، الصغيرة، تضيق بأقدامنا الحافية إنها الينابيع المستمرة الجريان.. سليمان العيسى تنازعه الطفولة في كل حرف كتبه، لأن في يمينه قلب طفل، يضمن فيه الأرض والسماء.. ما زالت تشدّه ملاعب الطفولة ويشدّه الحنين، فيوقظها في كل زاوية، ويحمّلها بقايا حبه القديم، وشوقه الذي ينثر الذكريات التي ترسم الخطوات لتكون في البال، قصيدة حالمة كتبت على دروب الجمر والعذاب..

لقد حمل شاعر (العروبة) الشمس في أشعاره، فإذا البوس نشيد عطر.. لقد أيقظ الأغاني التي دعت (الوضاءة) لتستحم في مياه العاصي الرقراقة، الشاردة جداول هنا وهناك بين العشب والشجر، أشبه بقصيدة رائعة النسيج والصور، انتشرت أبياتها أشطار، وظل كل شطر يصدح، يردد نشيده الخاص في فوضى من البهجة والجمال.. إنها متعة الصغار الأولى التي لا تزال حية نابضة في أعماق الذاكرة والحنين.. في أعماق الشاعر الكبير..

ما زالت ملاعب طفولته، أرض الجمال البكر، والألق العتيق، الذكرى تحمل رائحة الرغيف الذهبي الذي كان يخرج من تنّور (أم محمد) في قرية (النعيريّة).. هو سرّ الحياة وحلم الورى الذي ما زال حلماً.. هي مسيرة كفاح مريرة لم تكن تخلو من حب وشعر وغناء ومرح وطموح إلى الأجمل والأرحب..

سليمان العيسى، كان خلال مسيرته الغنيّة الحافلة بالعطاء من المؤمنين باللحظات التي تشتعل في حياتنا، وتظل هي الأجمل والأغلى، يؤمن بالومضة التي تسع الحياة.. وتسع الوجود كله أحياناً.. يبحث في نبض التحدي والهوى، فتورق الأرض، ويخضرّ اليباب كلّما رفّ على الدرب حبيب وحبيبة.. يقول للشعراء وللكتّاب: اكتبوا خذوا القلم واكتبوا، أنتم الآن مع صفاء الفجر، وصفاء السماء.. قولوا شعراً سيأتي الينبوع سخياً دافقاً.

إنه الشاعر الذي غنّى وأعطى، ما خبا.. الهوى عنده باقٍ.. في جذور الضوء كان راسخاً.. كان للشعر ولم يزل شلاله الآتي قصيدة خضراء فيها يصهل البيان وينتشي بعطرها نيسان.. لقد كتب أغلى الكلمات للتي أحبّها.. اعتصر المحال.. كتب للنضال، وللواحات والرمال.. كتب للنساء والرجال.. كتب للأطفال.. وما زال الظامئ يبوح ويبوح..

شاعرنا الكبير ما زال يفتح دفتر الوهج العتيق، يرنو إلى الماضي البعيد والقريب، يستعيد الأحلام القتيلة، الظمأ القديم باقٍ معه وما زال يبحث عن نجم جديد كل يوم.. صحيح أن الحلم العربي انكسر وضاع وتبدد، لكن شاعرنا الكبير ما زال يحلم بفترات العز والازدهار التي عاش العرب فيها أجمل أحلامهم القومية.. كلماته وشعره ما زالا يحملان في مضامينهما وآفاقهما المشرعة على المستقبل كل الحب والحماسة والتوق إلى غد مشرق عزيز.. لقد كافح بلا هوادة، لكي يتحرك الجسد العربي، وتبعث فيه الحياة، وكان في أعماق أمتنا العربية صرخة تتشظى، لا قصيدة تقرأ فقط..

سليمان العيسى ما زال عمره بالطفولة معشباً.. ما زال نهر عطاءاته يفيض بالجليل والجميل، من الشعر والنثر، ليعبّر عن هموم الأجيال العربية منذ أكثر من ستين عاماً.. ما زال يغرس أشجار التفاؤل في النفوس، ويزرع

البيادر من قمح وغلال في مشارق الوطن العربي ومغاربه، لتتحول إلى مصباح ينير درب الأجيال.. أحلام سليمان العيسى تبدأ من الأرض التي ترتبط بأعوامه المديدة، يعانقها رعشة رعشة، من قريته الوادعة في اللواء السليب على ضفاف نهر العاصي، في قرية (النعيرية) إلى جزيرة (السندباد) في البصرة العراقية، التي أملت عليه ديواناً كاملاً أسماه (أغنية في جزيرة السندباد) ووضع على لسانها ما لا يُعد من القصائد والأغاني، في دمشق وحلب وبغداد وصنعاء والقاهرة وتونس، وأعالي قمم الأوراس، وشواطئ امتدت عبر العمر كله من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.

كانت الأرض نسيجاً واحداً من الذكريات والشعر والحب والتاريخ.. نسيج واحد يترقرق إحساساً ناعماً يملأ الجوارح والأفئدة، ليتصل الحلم بين شاعرنا وبين التاريخ والأمكنة، التي طوّف بها وزارها، وجميعها كانت ترتبط أبداً بتنسيج الأول، بالأرض التي درج عليها، وزرع فيها أعوامه الأولى، وأحلامه الأولى.

سليمان العيسى من جيل كان الحلم العربي محور حياته وشعره، أحلامه كانت وراء كل كلمة قالها في حياته، ولا يرى لحياته معنى من دون حلم يقول: (قد تُنسف أصابعنا، وتحترق أحلامنا، لكن الحياة لا بد أن تستمر، ولا بد أن نملأها بشيء يسوغ وجودها، ويعطيها معنى، وهل هناك شيء يحركنا، ويحمل العزاء إلينا، في أمرّ الهزائم، وأقسى الانكسارات مثل الحلم؟! هذا الحلم الذي صبغ حياته، ولوّن نتاجاته، وأعطاه نكهته التي عرف بها.

لقد غنى وكتب من وحي حلمه العربي للأطفال، فأورق قلمه على دفتر العشب، لأنهم حلمه الأعذب، ونبعه المخضّب، فحملهم نغمة في فمه، تفتحت في فضاءات العطر أغنيات وأصبحت معروفة الدهر على صدر الزمان، وباقيات في سفر الضياء، ما بقيت الشمس تضحك والقمر.. في أوراقه الشخصية، يقول للإخوة والأصدقاء الذين قرروا ذات يوم أن يجمعوا نتاجاته في كتاب:

اذكروا أني عشقت الأرض
أحببت الحياة
وترشفت ثُمالات الغروب
وأنا أبحث عن أولى زغاريد الصباح
اذكروا أني كالأطفال غنيت
وطاردت الفراشات طويلاً
وتسلقت الشجر..
وقطفت التين والرمان
من بستان جدي، والقمر
كان جدي عاشقاً للقمح والرمان
والأرض التي تعطي الثمر
اذكروا أني وإياها نسجنا
مثلما شاء الهوى أيامنا
وزرعنا خلف أسوار الدجى أحلامنا
وجعلنا الحب قنديل خطانا وسُرانا
وقنعنا بالحكايات التي يخضرّ فيهن السحر

سليمان العيسى، لم تسكت أغانيه وقصائده السنون.. ما زال يطارد اللحظات الهاربة، يقبض عليها بكلتا يديه، فيختصر الوجود، في فضاءات المستحيل، ويحمّل الحب جناحين، ويوقظ الجمرة في الصقيع، ويدعو الربيع من آخر الدنيا، إلينا عشب وريحان ولوز ورمان.. إنه يؤمن بالعشب فاكهة المجهول التي لا يبدعها سوى القلق، ويبقى الحلم والأمل فيكتسب ويكتب:

فمن صخرة في سفح قسيون(١)
جئنا.. ونبقى
ويبقى ظل قسيون
عروبة تتحدى.. ترسم الزمنا
نجماً على قبة الحمراء
وعبقة من شذا الفيحاء(٢)
تنساب بين غروب الشمس والصين)

في جذور سليمان العيسى، كل أحلام الشجر، زاده الأرض العتيقة، والسماء البكر، يقيم في أرض العرب، لم يخلق ليتحجر في صفحات كتاب.. هو الصوت الذي يترقرق حنيًا كينابيع الفردوس، ويزأر حنيًا كعاصفة، يتحرّك ويحرّك.. يملأ القلوب والأسماع، حركة وحياة وتمرداً على البلادة واليأس والخمول.. ينظر في المدى، ويبحث عن رحيق الحرف، في الشعر الذي يهب البشر، معنى البشر.

هي العروبة التي أعطته كل هذا الحب المعمور.. هي العروبة التي غنّاها في شعره ونثره.. هي العروبة نسيج حضاري هائل، ضارب في أغوار التاريخ.. تشابكت فيه ملايين الأصول والفروع، لتعطي الإنسان أكرم ما أعطاه شعب على وجه الأرض:

وأبعد نحن من عبسٍ
ومن مضرٍ، نعم أبعدْ
حمورابي، وهاني بعل
بعض عطائنا الأخلدْ
لنا بلقيس، والأهرام
والبرديُّ والمعبدْ
ومن زيتوننا عيسى
ومن صحرائنا أحمدْ
ومنَّا الناس - يعرفها الجميع - تعلموا أبجدْ
وكنّا دائماً نعطي
وكنّا دائماً نُجحدْ

سليمان العيسى، بك تستضيء الساحات والشرف، خليّ الشعلة في يُمناك، يا من ملكت سرّ الشعر والعطر والحب، ستواصل الأجيال الطريق معك إلى الشعر والحب والحياة، وستبقى الأحلام زاهية أبداً، عساك تزرع في الصحراء ظلاً لوردة.

١- قسيون هو الجبل المطل على دمشق
٢- الفيحاء هي مدينة دمشق

الوجه الآخر للشاعر سليمان العيسى

بقلم:
عيسى فتوح

من المعروف عن الشاعر سليمان العيسى أنه شاعر قومي ملتزم، آمن بالعروبة مبدأ، وبالاشتراكية عقيدة، منذ أن شب عن الطوق في قريته (النعيرية) في لواء اسكندرون.

وأخذ يتلقى تعليمه الأولي في الكتاب على يد أبيه الشيخ أحمد العيسى، يوم لم تكن ثمة مدارس غير الكتاب وتحت السنديانة، أو في زاوية الجامع أو الكنيسة. وعندما سلب اللواء عام ١٩٣٨ نزح في جملة من نزح من أبنائه كزكي الأرسوزي، والدكتور يوسف شقرا، وصدقي إسماعيل، وصبحي زخور وغيرهم، ودرس في دمشق وحماة، وبعد أن تخرج في كلية الآداب - جامعة بغداد، استوطن حلب، وعمل مدرساً للغة العربية فيها، إلى أن استقر به المطاف في دمشق، موجها أول للغة العربية في وزارة التربية.

لسليمان العيسى مداعبات شعرية كثيرة، ولا سيما في جريدة (الكلب) التي كان يصدرها المرحوم صدقي إسماعيل ويحررها بخط يده، ومطارحات زجلية رقيقة، وقصائد ضاحكة نشرها في ديوانه الجميل (الديوان الضاحك). وقد عثرت بين أوراقي المنسية على رسالة كتبها لي من مشتى الحلو في ٢٣ أيلول عام ١٩٦٣ وزجلية لطيفة بعنوان (قصعة أبو خليل) آثرت نشرهما، لما فيهما من متعة وفكاهة وتصوير فني رائع.

عرفت الشاعر سليمان العيسى صيف عام ١٩٦٢ في مركز تصحيح أوراق امتحانات الشهادة الثانوية في حلب، فقد كنت مصححاً لمادة اللغة العربية، وكان هو مدققاً، وكثيراً ما تجود قرائح الشعراء والنظامين أثناء التصحيح، بالرغم من الحر الشديد في مثل هذه الأوقات، فيتبادلون النكات والطرائف والقصائد

الضاحكة، وينظمون الشعر الخفيف بالفصحى والعامية ترويحاً عن النفس.

أذكر أنني كنت أحمل يومئذ مجلة (الدنيا الجديدة) التي أصدرها الأستاذ عبد الغني العطري، بعد توقف مجلته (الدنيا) وكان يزين غلافها وجه جميل لفتاة رائعة الحسن، فتناول المجلة وتصفحها، وبعد أن تأمل غلافها ملياً، كتب عليه هذه الأبيات التي أوحتها له صورة الفتاة الجميلة:

إن عيسى يحيا بـ (دنيا جديده)
وفتاة الغلاف تهصر عوده
مر في الدرب متعباً فرآها
مبسماً مزهراً وعيناً شروده
وجبيناً ترف دنيا عليه
من وعود وأمنيات بعيده
فتهادى حيناً، ومد إليها
يده بارتعاشة عربيده
ومضى يحمل الكنوز سعيداً
من حواها حوى حياة سعيده

وبعد عام ونيف من هذا التاريخ – أي في ٦/ ١٢/ ١٩٦٣ – دعيت لأداء خدمتي الإلزامية في حلب، فصرت أتردد إلى بيت سليمان كل يوم جمعة، أستريح في منزله – القبو – من عناء التدريب الشاق، وأفضي له ببعض متاعبي وهمومي، فيخفف عني، ويهدئ من ثورة أعصابي المشدودة فقد كنت أشعر هناك بالوحشة الخانقة، والغربة القاسية، بعيداً عن أصدقائي وأهلي في قريتي الوادعة، وفي دمشق التي احتضنت شبابي وفترة دراستي الجامعية.. كان كل شيء يثير في نفسي الكآبة والحزن، فألجأ إلى كتابة المذكرات والرسائل والقصائد الرومانسية، أصب فيها زفراتي الحارة، وآهاتي المحمومة، فأشعر بالغبطة والارتياح.

لقد كان للصديق سليمان فضل كبير علي في هذه الغربة الكالحة، يلطف من حدة معاناتي، ويحملني في بيته على أجنحة الشعر والموسيقى وأغاني فيروز – التي كان ولا يزال يحبها حباً شديداً – إلى أجواء حالمة بعيدة عن قسوة الواقع الموحش وشراسته.. فتهدأ ثورتي، وأنسى منفاي، لكنني لا أكاد أعود إلى ثكنتي المنعزلة، حتى تعاودني الكآبة من جديد، وهكذا دواليك.

بعد ثمانية أشهر نقلت إلى دمشق، فتبددت كآبي، وانجلت سحب الهموم عني، إذ صرت قريباً من أخوتي وأصدقائي وزملائي في الجامعة التي فارقتها مكرها، لكنني أسفت على مغادرة سليمان الأخ والصديق المحب. ويأتي الصيف، فيسافر سليمان إلى مشتى الحلو، ليقضي مع الطبيعة الساحرة أجمل الأيام وأسعدها، فقد كانت المشتى مصيفه الأثير الدائم، ومهبط وحيه وإلهامه، ولذلك حظيت منه بأكثر من قصيدة كقوله فيها:

تل يغيب، وقمة
تبدو، وواد كالخيال
كاللغز يزدحم السؤا
ل، به على شفة السؤال
أبعيدة بين الهضا
ب الشاردات مع الغيوم؟
أبعيدة تلك التي
تدعونها كرم النجوم؟
الضيعة السحر التي
اختبأت وراء ضلوع ربوه
تسقي وتعصر، لا تمـ
ـل عطاءها كوباً ونشوه..

ولا يكتفي بالإقامة في المشتى، بل يخرج إلى ضواحيها التي لا تقل جمالا عنها، كـ (عيون الوادي) و (الكفرون) و (بقرعونه) التي تكاد تختفي وسط غابات من الخضرة الزاهية، وبحار من المياه الجارية العذبة، فقد وصف الكفرون في إحدى زجلياته فقال:

تلال تلال.. عيون عيون
وأخضر.. أخضر كلو فتون
وكيف ما بتمشي فيّ وميّ
ما عرفتا؟ هيدي الكفرون

ويعرّج أيضاً إلى قريتي الصغيرة (بقرعونه) التي رأيت فيها النور، ليزور البيت الحجري القديم، والوالدة العجوز، ونبع (الشير) القريب منها الذي يروي عدة قرى، وتشرئب صخوره البيضاء شامخة كالطود، عملاقة كالأهرام، وما إن تكتحل عيناه برؤيته حتى يهتف:

هيدا هنوّي نبع الشير
رفرف عا هالصخر وطير
ما بتدري عم يدفق مي
وإلا عم ينسج حرير!

ولا يغادر المشتى في أواخر أيلول قبل أن يكتب لي ويعبر عن انطباعاته عن هذا المصيف الذي استأثر بإعجابه، وفتنه بجماله الأخاذ فيقول:

أخي العزيز الأستاذ عيسى:
"كنت أغني وابنتي (بادية) مطلع زجلية (الكفرون)، وأقفز فوق الصخور الصغيرة في الطريق، وإذ بي أصل فجأة إلى نبع الشير، وأطل على الصخر العملاق، كأنه أهرام هائلة بناها الخلود ليدفن فيها نفسه.. فأيقنت آنذاك أن كنوز الجمال في الوادي قد اختبأت هنا.. أية روعة تحسها وأنت ترسل عينيك إلى أعلى، وتترك نظرك يتسلق مذعورا من صخرة إلى صخرة.. ثم لا يلبث أن يتدحرج فجأة إلى الهوة.. حيث النبع الدافق يتلقاها ليصنع له ألف أغنية تهدهد ذعره، وتضمد جراحه".

"كنت البارحة على الشرفة الجميلة في داركم الحلوة.. أمامي الوادي الأخضر.. وتحت يدي كأس عرق تضحك على السمكة – كما تقول أغنية وديع الصافي – ومن حولي الأخوة الكرام والعائلة كلها حتى الوالدة العجوز – مد الله في عمرها – غادرت السرير، وكانت مستلقية تستريح، وجاءت تشاطرنا السهرة، وتحت الشرفة بمترين يقبع عجل صغير تداعبه بادية منذ ساعة، وتقدم له الحشائش ليأكل.. أتظن أنني أغادر المشتى قبل أن أمر عليكم وأتناول كأساً على الشرفة؟ إنك إذن لقصير النظر.. الجميع يهدونك التحيات، ولقد تذكرناك كثيرا.. وشربنا نخبك غير مرة.. وكم تمنينا لو أتيحت لك (مأذونية) خاطفة، وهبطت علينا فجأة في تلك الأمسية الحلوة".

"لم أعتذر عن الغداء في المرة الماضية.. وإنما يضطرني الأخ مطانيوس ميخائيل إلى الاعتذار، فلم أشأ أن أقاوم.. والواقع أنكم جميعاً أخوة طيبون وأحباء لنا.. فهل تعذرني؟"

"سأغادر المشتى في نهاية أيلول، وأنا أود لو طالت فترة الصيف حتى كانون.. حتى السنة الجديدة.. لقد أصبحت أعرف أحجارها حجراً حجرا.. وحفظت أخبارها ودروبها.. وينابيع الوادي كله من العيون إلى أقصى الكفرون.. ولكن لم أجد أروع من (نبع الشير) إلى الملتقى في فرصة قريبة.. وأسلم للمخلص".

سليمان العيسى

لقد اعتاد خلال وجوده في المشتى أن يزور عميد أسرة الحلو السيد جبرا الحلو (أبو خليل) ليتناول على شرفته صحنا من الفول اللذيذ عند الصباح، مع نخبة من أصدقاء اللهو والمرح والظرف كأبي ميخائيل (يوسف النجيب الحلو ومصطفى الحلو) وغيرهما.. فأوحت له إحدى هذه الوجبات بزجلية لا أروع منها ولا أجمل، وهي تشف عن إحساسه المرهف،

وطبعه الأصيل، وشاعريته الطلقة، ووصفه البديع، وتمكنه من صياغة الشعر بالفصحى والعامية على حد سواء، فلنسمعه يقول:

اغمس لك غمسة من هالفول
بتعرف تحكي عا الأصول
أفكارك بتصير أنضج
وهمومك كلا بتزول

* * *

قصعة عمك بو خليل
قصعة أمجاد وأحساب
من قبل الفجر بقليل
بينصبها قدّام الباب
سمرا.. منحوتة بإزميل
من أعتق دلبة بالغاب
تخرج منها طنعشر جيل
وبعدا بتستهوي الطلاب
غمستها بتشفي العليل
وقالوا بترد الشباب
وإلها متل التراتيل
نغمة أحلى من الأرغول
اغمس لك غمسة من هالفول
قصدنا مع أنسام الفجر
وفجر المشتى كلو عطور
الوادي قبالك سحر بسحر
وجيرانك: تينة وعصفور
وعمك جبرا متل النسر
متربع عا كتف السور
مشغل نار مركب قدر
وشي فيها بيغلي وبيفور
معمر أركيلة للشعر
ودلة بجنبو عم بتدور
والقصعة محتلة الصدر
ونحنا فيها طلوع نزول
اغمس لك غمسة من الفول
اسمع مني اطلع لك طلعه
عَ البيت اللي فوق الدرب
بتشوف المشتى روعه
كل شيء بهالضيعة بينحب
تلاتا ستة سبعة
والوادي مرجوحة حب
والنبعة بجنب النبعه
ألحان وميّه بتصب
لوحة حلوه هالضيعه
شو متفنن فيها الرب
استنا.. لا تنس القصعه
ضيفا عا الكنز المجهول
اغمس لك غمسة من هالفول

* * *

وبعد فسيظل أهل مشتى الحلو وضواحيها يذكرون الشاعر سليمان العيسى بالخير على الدوام، لأنه خلد قراهم الجميلة بشعره الفصيح والعامي، وينتظرون قدوم الصيف بفارغ الصبر ليلتقوا به، ويتحدثوا إليه، ويسمروا معه، ويستأنسوا بسهراته الحافلة بالشعر والأدب، والظرف والمرح التي غالباً ما تمتد حتى ساعات الفجر الأولى، وقد منحوه لقب (مواطن فخري) تقديراً له، واعترافاً بشاعريته وفضله




على صهوات الموج

شعر: سليمان العيسى

إلى الملاح العربي العظيم ابن ماجد.. في وقفةٍ عند مراسيه الخالدة

علـــى صَــهَواتِ المــوج كنــتَ تُخــيِّمُ
وتُــــسرِجُ عنقـــاءَ المُحـــيطِ وتُلْجِـــمُ

علـــى صَــهَوات المـــوجِ والـــريحُ خِرْقَــةٌ
بكفَّيْـــكَ.. مـــا شـــاءَ الـــشراعُ تُــدوِّمُ

تُزمجِـــرُ في قلـــبِ العُبـــابِ فينتـــشي
بفارســـهِ قلـــبُ العُبـــابِ ويَـــنْعمُ

وتُجـدبُ مــن حــولي الـضِّفافُ وحيثُمــا
رسَــوْتَ بمجــدافَيْكَ كانــت تُــبرعِمُ

شــراعٌ علـــى مَــدِّ الــرُّؤى وقــصيدةٌ
تلـــوِّنُ مـــا شـــاءَ الهـوى وتنمـــنِمُ

شِـــراعٌ ومـــلاَّحٌ.. وتنتعـــلُ المَـــدَى
تَخُـــطُّ علـــى زُرقِ الفِجـــاجِ وتَرْسُـــمُ

إلى أيْـــنَ؟ يـــا شـــوقاً إلى كـــلِّ غـــامضٍ
ويـــا ظمـــأً لِلمُـــشتَهى لـــيس يُهْـــزَمُ

علـــى الزَّبـــدِ المجنـــونِ ظِلُّـــك هـــائمٌ
يـــروِّضُ لُجـــاً بعـــد لُـــجٍ ويَقْحَـــمُ




وتُنــــشِدُ أشــعارَ الـــشموسِ مُفــاخِراً

وأنـــتَ بقايــا أُمــةٍ تـــتحطَّمُ

تُــذيعُ علــى الــدنيا بقِيَّــةَ ومــضها

فتلـــتقِطُ الـــضوءَ البحــارُ وتُلْهَــمُ

رويــدَكَ يــا أســطورةَ الــيَمِّ مــا الــذي

تَبَقَّــى ومــاذا عــن عُبابِــكَ نعلَــمُ؟

طوينــاكَ في الأعمــاقِ كــلُّ كُنوزِنــا

علــى الأرضِ في أيــدي الغُــزاةِ تُقــسَّمُ

علــى صَــهَواتِ المــوجِ آخِــرُ موجــةٍ

تــسنَّمتهَا للــريحِ والمــوتِ تُــسَلمُ

وأحــرِقُ في ليــلِ القــصيدةِ دَمْعَــةً

ويــسْخرُ مــني الــدمعُ.. والليــلُ أسْــحَمُ

أبــا الموجــة الزرقــاءِ دعــني حكايــةً

علــى شــطِّكَ المــسحورِ بــالأمسِ تحلُــمُ

أنــا الــوَتَر الــدامي، زرعــتُ عــشيرتي

بــصدري، معــاً نُــسقَى الهــوانَ ونُطْعَــمُ

معــاً.. لا عِنــادُ الحُلْــمِ يُلقــي ســلاحَهُ

ولا لمعــةٌ في حُلْكَــةِ العمــرِ تبــسِمُ

أتيتُــك.. لــي عنــد المرافــئِ وَقْفَــةٌ

بكــلِّ انكــساراتِ الــصدى تتلعــثَمُ








أتيتُـــكَ، يــا ليـــثَ البحـــارِ، ثُمالــةً
لِحُلْـــمٍ بأيـــدي صـــانعيهِ يُهَـــشَّمُ

ألـــوذُ بظـــلّ مـــن شـــراعكَ شـــامخٍ
وعنـــكَ بأعمـــاقِ الـــردى أتكلَّـــمُ

أمُـــدُّ يـــدي والـــشطّ جـــاري وأنـــثني
بقبـــضةِ رمـــلٍ منـــكَ.. عـــني تُترجِـــمُ

أبـــا الـــريحِ.. تـــذْروها كمـــا شئتَ خلِّـــني
مـــع الـــريحِ، لحنـــاً في العَـــراءِ يدمـــدِمُ

علـــى صَـــهَواتِ المـــوجِ مـــا زلـــتَ طـــافراً
وفي عَتَمـــاتِ القهـــرِ مـــا زلـــتُ أجـــثُمُ

أمـــدُّ يـــدي.. والـــشطُّ شَـــطُّكَ ســـامري
وقِلْعُـــكَ في رأســـي ضَـــبابٌ يهـــوِّمُ

عَـــزاءُ اليتـــامَى أنَّ طيـــفَ جُـــدودِهم
يمـــرُّ علـــى أوتـــارِهم.. ويغمغِـــمُ

أبـــا الـــريحِ.. لم تُنْـــصِفْكَ ريـــحٌ تعلَّمَـــتْ
لـــديكَ، وراحَـــتْ في الزمـــانِ تُعَلِّـــمُ

ســـلامٌ علـــى الـــذكرى ســـلامٌ علـــى الحَـــصَا
يُـــضَمُّ علـــى اســـمِ الخالـــدينَ ويُلْـــثَمُ

ســـلامٌ علـــى قيثـــارةِ الـــيَمِّ.. إنَّهـــا
بمـــا كنـــت تُملـــي.. لم تَـــزَلْ تترنَّـــمُ




شاعر العروبة وأمير شعراء الطفولة

بقلم:
يا سر المالح

غالباً ما تكون الشهادة للكبار ممن عاصروهم وعاشروهم قاصرة أو مبالغاً فيها. فالقصور يأتي من نقص المعرفة أو الرأي المخالف بلا تروّ أو من الحسد. والمبالغة تأتي من الإعجاب الشديد أو الحب الذي لا يَرى. وما أصعب أن تكون الشهادة عادلة موزونة بميزان! والشهادة العادلة لا تليق بوصف المبدعين الكبار لأنها تبدو جافة جفاف النص القانوني، فهو ينصف دون إمتاع، فكيف أشهد؟

سأحاول.. معرفتي بسليمان العيسى منذ أربعين سنة لا تكفي للشهادة له أستاذاً وصديقاً، فقد ولد عملاقاً قبل أن أولد. وكل ما أسمح به لنفسي أن أبدي بعض ما أكنّه له من إعجاب وحب وتقدير لما اجتمع له من صفات لا تجتمع لغيره.

* سليمان العيسى شاعر مبدأ وقضية. وحلم الوحدة العربية يسكن عينيه ووجدانه وأعصابه منذ كان طفلاً يحاول اكتشاف ما حوله.

* سليمان العيسى مقاتل عنيد. سلاحه الكلمة والنغمة الساحرة.

* سليمان العيسى يعرف طريق الخلود ويسير فيه. كثيرون شبّوا على ترانيم أناشيده، فسكن اسمه في مستقر الذاكرة لا يبرح. ودواوينه وأعماله تطل على الناس في المعارض والمكتبات الكبيرة، فتتناولها أيدي العشاق لتقرأها وتضمها إلى الصدور.

* سليمان العيسى طفل ذكي لا يكبر، لذلك أحب الأطفال وكتب لهم، وأحبه الأطفال وغنوا شعره.

* سليمان العيسى مفرط في رهافة حسّه. هو مطلٌ أبداً بجوارحه كلها ليسمع ما يقال ويرى ما يعرض ويقدّر ما يخفى.

* سليمان العيسى بعينيه الزرقاوين ينفذ في عمق الأشياء، ويمتاح من الينابيع الصافية، ولا يلتفت إلى السواقي التي تجري على السطح.

* سليمان العيسى يعشق الجمال في كل شيء. ويرى في المرأة جمال العقل والروح قبل الجمال الزائل. والمرأة عنده شريكة حقيقية ومصدر إلهام وسكينة.

* سليمان العيسى صديق وفيّ. يحب الناس ويحبه الناس.

* سليمان العيسى عاشق الموسيقا والفن الرفيع تتحسسهما في شعره ونبرته.

* سليمان العيسى ليس ظاهرة مرتبطة بزمن ما ومكان ما. إنه حضور دائم ووجود كامل في القرن العشرين وما يليه من قرون.

* سليمان العيسى قيمة أدبية وفنية للعرب جميعاً.

* سليمان العيسى يعيش للعطاء ولا يمل العطاء. ولا ينضب ينبوعه حتى يحين الصمت الأخير.

وقصتي مع سليمان العيسى قصة:

أحببته قبل أن أراه، وقرأته قبل أن أسمعه، فلما رأيته أول مرة وسمعته أول مرة، أحببته أكثر، وأكبرته، وغرقت في موسيقاه.

حين لقيته أول مرة نظر إليّ بعينيه الزرقاوين اللتين يشع منهما البحر المحيط والذكاء الذي يعبر الحدود. فأدركت أنني أمام جبل رحيم، يحضن كل شاد ومغرّد كما يحضن قاسيون دمشق.

كان سليمان العيسى يحبّ العربية حبّاً لا مزيد عليه، فكانت تسري في شرايينه وأوردته، وكانت النواة التي تدور حولها الكهارب في خلاياه. وكان يحب كل من يحبّ العربية ويغار عليها. فالعربية عنده ساحرة فذّة، هي التي تجعل الحلم الأخضر حقيقة. والحلم الأخضر عند سليمان هو الوحدة العربية، وهي حلم كل عربي، يريد أن يعيش حراً كريماً مبدعاً منتجاً، ليسهم مع شعوب الأرض في صنع حضارة جديدة تليق بالإنسان.

رجل يفكر في هذا، ويناضل من أجل تحقيق الحلم الأخضر.. رجلٌ أحقّ أن يتّبع. فانضويت تحت لوائه، وهو ابن اللواء، وبدأنا نعمل معاً من أجل رفعة العربية، وأول ما دعانا إليه أن نصحبه في الدخول إلى عالم الأطفال.

وقال لنا: من هنا نبدأ.

كان ذلك في العام ١٩٦٧ بعد النكسة. تلك النكسة التي أوجعتنا لكنها لم تحطّمنا. وأذهلتنا إلى حين قصير الأمد، لكنها أيقظت انتباهنا إلى أن النكسة لا تعني النهاية وإنما تعني البداية.

واجتمعنا مع شيخنا سليمان العيسى. وكان الموجه الأول للعربية في وزارة التربية، وأخذنا نفكر فيما سيأتي في ضوء ما حدث. شيخنا قال لنا وهو في ريعان شبابه آنذاك:

(هزيمتنا حالة وقعت. والحرب كرٌّ وفرّ.

وانتصارنا في المستقبل يبشر به أطفال اليوم.

إذا استطعنا في مناهجنا وكتبنا أن نزرع في أطفالنا حبّ الأهل والوطن والطبيعة الجميلة، وأن نرضعهم من لبن الحضارة الماضية والآتية، فإنهم سيصنعون الانتصار، ويحققون الحلم.

نحن اليوم أمام مهمة صعبة.. يجب أن نغير المناهج، أن نؤلف الكتب، أن نصل إلى الطفل من خلال المعلم الكفيّ الذي يعلو وجهَه الابتسام. فلنصل إلى الطفل بالشعر والموسيقا، والحكاية واللوحة، ولنلعب معه بالكرة الملّونة، حتى يعرفَ معنى الدائرة والكروية وألوانَ قوس قزح، وليعرفَ في أثناء اللعب بأن الكرة لا بدّ أن تصيب الهدف).

منذ ذلك العام بدأ سليمان العيسى ينشد للأطفال أحلى الأناشيد، وبدأنا نؤلف الكتب المدرسية للأطفال، وأناشيد سليمان تزين الكتب بما توحي من صور وما تحمل من إيقاع.

واستمرت اللقاءات اليومية مع أستاذنا، فقد كنا نعمل في وزارة واحدة. ولم تمضِ سنتان أو ثلاث حتى دخل عليّ يحمل قصائد مكتوبةً بخطه الجميل. وقال لي: أبا سامر، أرجو منك أن تكتب عناوين قصائدي هذه بخطك الفارسي الجميل، فقد عزمت على نشرها في أول ديوان لي للأطفال.

وخططت عنوان الديوان (ديوان الأطفال) وعناوين القصائد بخط (التعليق)؛ أي الفارسي، وشعرت بالفخر، إذ لامس خطي كلمات سليمان العيسى في أول ديوان يخطه للأطفال.

بعد أن غدت الكتب المدرسية بين أيدي الأطفال وفيها قصائد سليمان العيسى أحببت أن أختبر أسلوب إيصال أناشيد سليمان إلى الأطفال، فذهبت إلى معهد الحرية (اللاييك سابقاً ومعهد باسل الأسد لاحقاً)، واستأذنت مديره في أن أحضُر درساً يعلم إحدى القصائد، فرحب بذلك، ورتّب لي موعداً.

وفي الموعد دخلت الصف، فإذا المعلمة قد كتبت على اللوح قصيدة: (الرسام الصغير) لسليمان العيسى. فانتحيت جانباً أرقب ما يجري. كانت تعلم القصيدة بالطريقة التقليدية، فاستأذنتها في أن أحمل عنها العبء، فرحّبت. وبدأتُ أنشد قصيدة (الرسام الصغير) وأنا أضرب على الطاولة إيقاعاً مرافقاً. وطلبت من الأطفال أن يصفقوا ثلاث صفقات حين أقول كلمة (بالألوان) وجملة (أنا فنان). تقول قصيدة (الرسام الصغير):

أرسُمُ ماما
أرسُمُ بابا
بالألوانْ
أرسُمُ علمي
فوق القممِ
أنا فنانْ
أنا صيّادُ اللون الساحر
أرض بلادي كنزُ مناظرْ
دعني أرسُمْ ضوء النجمِ
دعني أرسمْ لونَ الكرمِ
أكتبُ شعراً
بالألوانْ
أحيا حرّاً
أنا فنانْ

سُرَّ الأطفال بهذه المشاركة بين الإنشاد والإيقاع، وطلبتُ منهم أن ينشدوها بالطريقة نفسها. بعد قليل مسحت ما على اللوح، فأنشدوها من ذاكرتهم وهم يوقّعون على مقاعدهم.

نظرتْ إليَّ المعلمةُ مذهولة، ونظرت إليها وقلت لها:

سليمان العيسى موسيقا كله. والأطفال يحبّون الموسيقا والإيقاع. ليتك تعلمين الشعر بالإيقاع والموسيقا.

ابتسمتْ معلمتنا ابتسامة غامضة. فشكرتها واستأذنتها وانصرفت. وذاع شعر سليمان العيسى في كل قطر عربي يردده الأطفال أداءً وغناءً. وصار الأطفال يحبون اللغة العربية، لأنها لغة سهلة مضيئة بالصور غنية في التعبير.

بعد سنوات من اللقاء اليومي بسليمان العيسى توطّدت صداقتنا، وصرت أزوره في بيته القبو. وتعرفت إلى زوجه ورفيقة دربه د. ملكة أبيض، فأدركت أن العبقرية تحتاج دائماً إلى يد امرأة حنون، تفجّر بلمسة واحدة مئة قصيدة. فكيف إذا كانت هذه المرأة العظمية ناصحة مساعدة مترجمة تدفعه إلى نشر شعره في أنحاء العالم؟

وكان لنا صديق مشترك هو ظريف الظرفاء المرحوم الأستاذ نجاة قصاب حسن المحامي الشهير، وكان أديباً شاعراً. فكنا نقضي أجمل الأوقات في المداعبات الشعرية المرتجلة بين سليمان ونجاة، وفي المزاح والتنكيت والغناء بمصاحبة عودي. وعرفت من خلال هذه الجلسات المتكررة أن سليمان أميرٌ من أمراء الظَّرف، وفنان متمكّن من صنعة العزف والغناء. ألم يكن يعزف على الشبابة في طفولته؟ ألم يكن يستمع إلى روائع الموسيقا العالمية وروائع الأغاني العربية؟ بلى. لقد استمع إلى كثير، واستقر في وجدانه كثير. منذ سنتين أكرمني فأهداني عشرات الأسطوانات النادرة من مكتبته الموسيقية، وقد جعلت ذلك كلَّه في موقع الصدارة من حجرة مكتبي، وما زالت بصماته وبصمات زوجته على كل أسطوانة، لم أمرَّ عليها حتى بقطعة مخمل حفاظاً على لمسات الحبّ.

وسافر سليمان العيسى بعدئذ مع زوجته إلى اليمن، واستقر هناك، وأنتج فيها من الشعر والحكايات المترجمة ما يعصى على الذكر لا الحصر. وكُرّم في اليمن تكريماً يليق به، فأطلق اسمه على بعض القاعات الثقافية العامة في جامعتي صنعاء وعدن.

وكُرّم في غير اليمن. كان يُكرّم أينما حلّ؛ لأنه أعطى كثيراً من فكره ووجدانه ومحبته. واستمرت الصلة بيني وبينه مسافراً وآيباً، وتأكدت المودّة بما يمنحني من ثقة لأنوب منابه في بعض الشؤون. وجلساتنا الأسرية تزيد في التحامنا، وتجعلنا أسرة واحدة، تشرب الشعر وتمزمز الثقافة وتحلم بالآتي المشرق. وسليمان العيسى هو من أقنعنا بأن الحلم الأخضر بوحدة عربية شاملة لا بد أن يتحقق.

تلك قصتي مع صديقي وأستاذي سليمان العيسى، واعتزازي بصداقته ولقياه لا يعادله اعتزاز.

رفيق طفولتنا

بقلم:
مانيا مسعود معروف

سليمان العيسى.. رفيق طفولتنا كما أحب أن أسميه وشاعرنا الجميل الذي خربش على دفاتر ذاكرتنا النقية الغضة في يوم ما وكبرت الذاكرة والأطفال وبقيت الخربشة عالقة على جدران أرواحنا وقلوبنا لأنها صادقة وعفوية.. لامستنا كلماته البسيطة والعميقة فحفظناها أناشيد وقصائد وعالماً متخيلاً من الصور والألوان التي يحفل بها كل ما حولنا.. لا زلت اذكر الكثير الكثير منها؛ لأنها حملت أمانينا وخطواتنا الصغيرة نحو الغد لنسابق الزمن. سليمان العيسى شاعر استلهم الكثير من شعره من الحياة والواقع من قضايا الوطن العربي الكبير وهمومه الكبرى هموم سيجت مشاعره وأحلامه لينطلق من خلالها في أرجاء الوطن يجمعه ويوحده بالكلمة.

لن أتحدث عنه كثيراً كشاعر؛ لأن شعره انطلق في فضاءات وطننا الكبير وحط كفراشات الزهر على مقاعد أطفالنا في أرجاء الوطن وبالتالي كان شعره موحداً لأحاسيس ومشاعر وأحلام هؤلاء الأطفال. شعره غازل الكثير من الجمال حوله.. وأينما حط رحاله كان يغازل الأماكن والطبيعة الساحرة وما يحفل به البلد الذي يزوره.. مليئاً بالجمال الذي يفيض كلمات رقيقة رقراقة منسابة كجدول ماء؟

كما قلت سابقاً كان - رفيق طفولتنا - ولكن حين كبرت كانت تأتيني بعض أناشيده في لحظات هاربة نحو الطفولة فأردد باللاشعور

تلك الأناشيد التي كان يحتويها مقررنا الدراسي في المرحلة الابتدائية وإذ بهذه الأناشيد تستحضر المعلمة والأصدقاء ورفيقتي في المقعد فتدمع عيني على تلك الأيام الجميلة. لم يخطر في بالي يوماً أني سأقابل - سليمان العيسى - ويصبح صديقاً وأستاذاً معلماً لي الكثير من المبادئ في فن الكلمة وكان أن التقيته وأجريت معه حواراً مطولاً عن حياته وشعره وذكرياته.

لقاءً سعيت لأجله شهراً كاملاً كانت مثابرتي عليه كالنحل في جني العسل.. وكلما ازداد رفض شاعرنا الجميل للقاء بحكم أنه متعب ولم يجر لقاءات صحفية منذ زمن كنت أزداد إصراراً على اللقاء به والإطلال على الناس، وكانت التساؤلات بعد نشر هذا الحوار من الكثيرين.. أين التقيته وكيف؟ هل هو هنا في دمشق أم سافرت إليه؟! هل هو قريبك..؟؟ وكنت في قرارة نفسي أجيب.. إنه الوفاء للطفولة وقدرة سليمان العيسى على التماهي والصدق معها هما اللذان أوصلاني إليه وذاكرتي المتقدة والنابضة بأناشيده حتى الآن هي من دلني على مكانه، بقيت الذاكرة وفية لشعره وكلماته وأشّبه هذه الحالة بما تأخذه من حيز حكايا الجدات في ذاكرتنا وتبقى الحكاية والجدة هما الرابط الأقوى بالطفولة.

أجل سليمان العيسى قريب طفولتنا وعمها وخالها وجدها الحنون أيضاً..سأتحدث عن سليمان العيسى الإنسان الذي لا تفارق الابتسامة محيّاه فارتسمت على وجهه الثمانيني كل ملامح الطفولة النابعة من نقاء القلب الذي رسم على مدى الأيام الفرح لأطفال وطنه..يفتح لك باب بيته كما يفتح قلبه لمن يحبهم ويحبونه بحديثه العذب وذكرياته عن الناس والأصدقاء والأماكن التي زارها كلها تضعك أمام إنسان يفيض بالوفاء لكل هؤلاء الذين تقرؤهم في شعره.. وأكاد أجزم بأنه ما من أحد قابله سليمان العيسى إلا وكتب عنه أو له مقطعاً شعرياً وترى ذلك جلياً حين تقرأ تحت عنوان القصيدة أو المقطع الشعري الذي كتبه إلى فلان.. أو إلى الطفلة الجميلة.. إلى صديق أو إلى جبل.. أو بحر.. أو سهل.. أو واد..مكان..زمان.. شخوص.. تحفل بها مملكة سليمان العيسى الشعرية وقد كنت ممن كرمهم بالكتابة من خلال مقطعين شعريين جميلين بعنوان (سؤال وتهمة) و (مانيا ودفاتري القديمة) في ديوان يحمل عنوان (همسات ريشة متعبة) وهو قيد الطبع.

شكراً سليمان العيسى على الكلمات تلك وتكريمي بها. شكرا سليمان العيسى وأقول لك: يمتعني فنجان القهوة الذي احتسيه معك والدكتورة ملكة أبيض-رفيقة الدرب.

شكراً لأنك خربشت على حيطان الذاكرة لتبقى متقدة.




خيمة في الصحراء..

شعر: سليمان العيسى

على هامش زيارة لمضارب عبلة، في بادية نجد

أطلق صهيلك هذا الرمل والطلل
هذي جذورك في عينيك تشتعل
يا دار عبلة إني دمعة طفرت
ورحتُ في شهقة الصحراء أرتحل
طفولتي في يدي أذرو براءتها
على الطريق فعمري مورق خَضِلُ
وتُوقِظُ الخيمةُ الزرقاءُ أغنيتي
فاللحن بيني وبين الدهر متصل
(ودع هريرة) لا، لا، لن أودعها
ضجَّ العناقُ صباح الأمس والقبل
تهدمت جدر الماضي بغمغمةٍ
على الشفاه وجنَّ المبسم الثمل
دعني على شرفات الرمل إن دمي
أعني بقايا دمي بالرمل تغتسل

* * *

يا دار عبلة رديني إلى وتري
تقطّعت بيننا يا حلوتي السبل
في باب خيمتكِ الزرقاء مُتكئي
وليرحلوا إننا التاريخ والأزل




العيسى ورحلة الظمأ

بقلم:
عبد اللطيف الأرناؤوط

في آخر محطة من رحلة الشاعر (سليمان العيسى) الظامئة الحافلة بالرائع من مشاعره القومية والإنسانية، كان لا بدَّ من اختيار أجمل إبداعاته، وأكثرها تعبيراً عن رؤيته الوطنية التي جعلت منه سندباد الرسالة القومية، يطوف أرجاء الوطن العربي، ويقف على القرى والمدن والمعالم الخالدة وفي لهاثه عطش قاتل لتحريك الجماهير العربية وتبصيرها برسالتها وحفزها لتغيير الواقع المتردّي، وإنقاذ الإنسان مؤمناً بأن الشعر هو إرث الإنسانية الذي يثير النشاط ويجلو البصيرة وينير الدرب الطويل.

و(سليمان العيسى) من أكثر الشعراء المعاصرين اهتماما بتقديم شعره للناس موثقاً ومدوناً لا يقبل العبث ولا التحريف، حتى في ضبط الشكل والحفاظ على نصوصه كما قدمها من غير أن يعدّل أو يبدّل فيها.

وهذه الرعاية التي يقوم بها لشعره تنبئ باحترامٍ لفنّه وللجمهور الذي يخاطبه، وبحرص على ألا تعبثَ دور النشر أو الدارسون من بعده بهذا التراث.. وقد يقف الشاعر في مواجهة اصطفاء مختارات من شعره الذاتي أمام امتحان عسير، وهو المشهود له بسلامة الذوق والرؤية الفنية والجمالية النافذة، لأن العامل النفسي له دور بارز في الاختيار، وأنا أعلم أنه كان يفضل أن يترك للآخرين مهمة انتقاء مختارات شعرية من الأناشيد التي كتبها للأطفال أو يرجع إلى الأطفال أنفسهم أحياناً ويسألهم عما أثار إعجابهم مما كتبه، غير أن الاختيار للكبار محكوم بأمرين كما يشير الشاعر في مقدمة مختاراته (من رحلة الظمأ).. أولهما: أن مختاراته من شعره يريد لها أن تعبِّر عن رحلة ظمئه إلى تحقيق حلمه القومي

عبر مسيرة شعرية، ولم ييأس ولم يتعب أو يتخل عن هدفه الكبير.

والثاني: أنه فضَّل أن يكون المكان هو الأساس في الاختيار.

يقول: (إنني أحب المكان وأحاول دائماً أن أكون ملتصقاً بالأرض، أي أرض ساقتني قدماي إليها، وأظنني لا أحتاج إلى أن أعلن أنني كنت على امتداد الشعر والعمر، أشد التصاقا بأرضي العربية مدناً وجبالاً وأودية وشطآناً ورمالاً وخضرة وصحراء، إنها هي التي أملت معظم هذه المختارات في حبٍ مَلَكَ على أجمل ما حمل هذا القلب المتعب من مشاعر وأحاسيس).

إن اتجاه الشاعر إلى المكان يلائمه أشد الملاءمة، فعالمه هو عالم الأشياء المرئية، فلم يكن (سليمان) شاعر الاستبطان والغموض، كان يؤثر أن ينطلق من الواقع وأن يكون واضحاً كالنهار في صحارى وطنه العربي، وكان يفضل أن يكون له صوته الخاص في كل ما كتب، على أن المكان لم يكن لديه إطاراً جامداً معزولاً عن الزمان والإنسان والتاريخ، فالمكان لديه يكتسي دائماً عناصر عظمته من الحاضر والغابر، ولكن واقعيته في تجسيد المكان لم تكن واقعية المصور الناقل، إذ نراه يرتقي بالواقع المكاني والتاريخي، ويغير شكله ويسبغ عليه رؤية من خياله حتى يبدو كأنه قصة حلم، أو يتحدر من انخطاف كابوس ليل ثقيل.

يقف أمام نهر (الخابور) مثلاً، فإذا النهر يحدثه عن الحضارات التي توالت عليه واندثارها، وخلود النهر واستمرار السكان على ضفتيه في بناء الحياة وثبات الهوية.

يقولُ :

يتهامس (الخابور) والسحر
ويسيل لحن في دمي عطر
يا هذه الدنيا التي نبتت
فيها الشموس وأينع الثمر
هذي الملاعب: أي ملحمة
عذراء، تعيا دونها الفكر
كانت، وكان البَدْء، وانسكبا
بعض النسيج الليل والسحر
زحزح بأيةَ وهْدة حجراً
بحضارة سيشعشع الحجر
هي بنت ريشتنا وأنملنا
كان اسمها: آشورُ أو مضر
عربية.. ولد الزمان على
عتباتها، وترعرع البشر
يا معبر الآلام.. يا وطني
لكَ، للطفولة وحدها الظفر

تستثير شاعرية (سليمان) المكان وتجلياته مهما كانت طبيعته، قد يقل شأنه ويصغر حتى ولو كان صخرةً على شاطئ البحر، أو مقهى في قرية (مشتى الحلو) أو ساقية الضيعة يصغي إلى هسيس مائها، أو مدرسة تعلم فيها وخلّفت في نفسه ذكريات أو مدينة تذكره بمدرج طفولته، أو أوابدَ يطل منها التاريخ وحضارةِ العرب الغابرة، أو نقشاً أثرياً خالداً يحكي ماضي الإنسان العربي، وذلك أينما اتجه وأنّى استقر.

وقد يتجاوز في رحلته حدود الأرض العربية، فتدفعه إنسانيته إلى تخليد مدن غربية زارها كمدينة (ليل) في فرنسا:

أحب أن أضرب في المكان
يشربني، أشربه المكان
في هذه المرة سوف أحمل الزمان
حقيبة في كتفي وأشرد
إليك.. يا مدينة صغيرة تشع في الشمال
عصفورة لها جناحان من المُحال
كل زوايا الأرض
فيك سطعت.. يقال
(يا ليل) يا قصيدة تصدح في الشمال

جمالية المكان لدى الشاعر، تستمد ينابيعها من الطبيعة وروعتها كقوله في (عُتمة) من بقاع اليمن الساحرة:

منازلها.. وكور النسر تهوي فوقها النجمه
وتلثمها.. لتتركها على أوتارنا نغمه
ذرا.. بالعين نرشفها وتدعو اللثمة اللثمه
ذرا.. كتتابع الألحان في إلياذة ضخمه
شواهق.. تشرئب لها الغيوم لترضع الحلمه
يحاورها العقاب فيرتقيها.. موهناً عزمه

وتحتل الحواس الخمس حيّزاً من شعره في المكان فيشارك البصر والشم والسمع واللمس:

رائحة الأرض بعد المطر
أشهى عطر يتغلغل في جارحه
رائحة الأرض بعد انهمار الغيمة الأولى
تذكرك بإلحاح أن خليتك الأولى
من خلية التراب وأنك والأرض شيء واحد

وتبرز حاسة السمع في وصف نافورة الحجر بمدينة (صنعاء).

منذ متى؟
وأنت يا عصفورة الماضي تسقسقين
تروين بالوشوشة الحلوه
للرائح من حولك والغادين

قصة هذا الشامخ العملاق الشامخ في الجوار:

حملتِ كل سره
ورحتِ تقرئين
كتابه لليل والنهار

وتطول المقدمات التي هي أشبه بقصائد النثر في الديوان، حيث يسترسل الشاعر مع مشاعره وأفكاره لا يقيده وزن ولا قافية فتبدو ظاهرة جديدة في كتاباته، وكأنما يرى فيها لوناً من الحرية في التعبير دون أن يثقلها بالغموض والتعمية، بل كأنه ارتد في آخر محطاته في (اليمن) إلى جذوره الأولى، أراد أن يكون تعبيره عودة إلى منابع الشعر الأولى، أي إلى التعبير البسيط الصافي الذي يفهمه الناس جميعاً إلى جانب الشعر الموزون ذي الفنية الراقية، ويتقاسم هذان اللونان من الشعر نصف الديوان وخاصة ما كتبه عن (اليمن) في إقامته فيه.

فإذا استثنينا قصائد محدودة كتبها عن اليمن قبل استقراره فيه، فإن شعره في اليمن، في محطاته الأخيرة، يعْدِل بقية ديوانه.

إذ لم يترك مَعْلماً من معالم اليمن إلا وصفه، فاليمن في نظره منبت الهجرات العربية الأولى، والعودة إليها عودة إلى النبع بصفائه ونقائه، وطبيعة اليمن ساحرة ونقية لم تلوثها بعد

معطيات المدنية وتعقيداتها التي انعكست على روح الإنسان العربي، وفيها تتعانق الجبال والبحار والأنهر، وتنتشر القرى في قلب بيئة فطرية ما زالت تحتفظ برهبتها وقسوتها، ويحاول الإنسان اليمني في هذه الطبيعة أن يذللها لمشيئته لكنه لا يجور عليها ولا يمحو بكارتها، بل يقيم معها علاقة ودّ وصداقة من بيوت اختارت القمم ورمال مورقة في (سبأ)، ومرتفعات (نقم) التي تناطح الغيوم، وندف الغمام الممزق في وادي الضباب الرهيب، ومن سحر جبل (صبر) وتفرد شجرة الغريب، إلى قرية تستقر على صخرة أو عريشة عنب وخَيمة في الصحراء.

وقد يرتد الشاعر إلى معالم (اليمن) الحديثة كبيت الثقافة في (غمدان) وهو مفتون بسحر الطبيعة البكر في هذا البلد الذي يستعير من أرضه وإنسانه وعراقة ماضيه وعزم أهله:

يقال: إن (حَرَازاً) قطعة شردت من النعيم.. وحطت في ذرا اليمن
يقال: خذني إليها، إن بي ظمأ لكل حالية خضراء في وطني
يقال: لفّت (حراز) الغيمَ أو شحةً ورقشت جيدها بالعارض الهَتنِ
وأوغلت في الجمال البكر حاملة أسراره، وغدت أسطورة الفتن
يقال: إن شفاه الشمس قد عصرت رحيقها.. قُبلاً في خدها الحسن

ويخص مدينة (صنعاء) بقصائد متميزة، ويرى فيها تجسيداً لطموح الإنسان اليمني في توحيد الأمة وتحريرها..

كل شيء، كان سحراً وجمالاً في يديها
تعبت من سهر العشاق
ألقاها التعب مرة.. في سجن ليل مرعب..
مرت حقب
وهي تستنجد بالنور.. بماضيها الخصيب
وتشقّق
من صناديق الدجى فجر عنيدُ.. وتألقْ

ولم يغفل الشاعر (سليمان) مدناً يمنية أخرى، استقر فيها مثل (تعز) أو أقام فيها زمناً محدوداً مثل (عدن) التي يُكبر فيها مبادرتها إلى توحيد شطري اليمن بعد انقسام:

هذه الحلوة.. ما أروعها حين تحكي قصة المجد خُطاها
ذات يوم.. مسحت عن خدها غيمة الحزن.. تحدّته دُجاها
ذات يوم.. حطمت أغلالها رفعت أعلى من الشمس الجباها

قال صياد لمن مروا بها:

انزلوا الشاطئ.. طهرتُ المياه
هي للحب، وللدفء معاً
انزلوها.. يحتضنكم ساعداها

لم يكن المكان وحده محط اهتمام الشاعر، ذلك أن الإنسان هو الذي يمنح المكان معناه، ولذلك يشعر بالحزن وهو يبحث عن (امرئ قيس) جديد في ديار العرب.. في طريقه إلى (حضرموت) فلا يثيره المكان لأنه فقد دلالته بغياب الإنسان البطل أو المبدع:

إني أبحث عنك
في أعماق الرمل الأسمر
إني أبحث عنك
في الواحات وفي الدارات
لم ألمح أثراً للفارس
لم أبصر طيفاً للشاعر
لا عجب.. الأطلال دواسر
سقطت في الأعماق، سقطنا معها
صار الأمس بكاء الحاضر
لا تسألني..
(دارة جلجل) عند تخوم اللدّ مخيم
منذ سنين عذارى الحي يقمن هناك
يغزلن الزمن العربي عباءات لليُتم هناك

ويطيب له في وقوفه على معالم الوطن العربي أو سواها، أن يتحدث أبداً عن مأساته الخاصة وتشرده، فهي صورة مصغرة لمأساة الوطن، ولأن نزوحه عن الواء كان وهو طفل، فإن نكبات كثيرة كان يتوقع أنها ستحل بوطنه العربي الكبير وأن الرواية لم تتم فصولاً، فكانت كل نكسة تذكّره بمحنته وتزيده إصراراً على أن يدحرج صخرة عذابه إلى القمة لترتد إلى السفح دون رحمة، فإذا هو أخيراً كالكرة تتقاذفه الأقدار من صقع عربي إلى آخر. فيطوف القرى والمدن لا ليبكي قدره بل ليستقوي بجماهير أمته على زحزحة هذا القدر، وليس معه إلا رفيقة دربه، التي يفيء إليها في رحلاتهما المشتركة ويقاسمها المصير والقدر.

أنا وأنت.. وما من عُشبة حليت
إلا وحدَّثها عن حبنا.. القصب
هذي الربوع.. سقيناها الصبا غزلا
ونشوة.. هدَّها في الرحلة التعب

وصدق الشاعر (سليمان العيسى) حين كتب أول كلمة ألقاها في اليمن وفيها يقول:

(أنا لست شاعراً.. أنا إنسان عربي يقاتل بالكلمة.. يقاتل بالشعر، ليس الشعر همي، ولا هو قضيتي.. قلت هذا في كل ما كتبت، وسأقوله في كل ما سأكتب.. جعلت مرة عنوان الصفحة الأولى لديوان من دواويني في أبيات ثلاثة).

يقول:

إنها (حبات رمل) عطشت
تتحدى اليأس فيها الظمأ
أنا في أعماق قومي صرخة
تتشظى.. لا قصيد يقرأ
حسب لحن ينتهي في وتري
أنه في صدر غيري يبدأ

ترى هل بدأ اللحن يتردد في صدور الأجيال..؟

لا أحد يستطيع أن ينكر ريادة هذا الشاعر الكبير القومية.. وأثره في الأجيال المقبلة، وإن كان ذلك اللحن تعترض أصداءه جبال وموانع لا بدَّ أن يزحزحها الإنسان العربي مهما طال الظلم وتنمَّر العدوان.